ابراهيم الكوني



الخروج الأول

الى وطن الرؤى السماوية

الخروج الأول

الى وطن الرؤى السماوية

ابراهيم الكوني

الخروج الأول

إلى وطن الرؤى السماوية

«لقد كانت الصّحراء دائماً
وطن الرّؤى السماويّة»

روبرت موزيل
ملحمة «الإنسان بدون خصال»

* إبراهيم الكوني: الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية.
* الطبعة الأولى: ١٩٩٢.

* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No.4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* المركز الرئيسي:
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩
ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

من مجموعـــــة

«الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة»

١٩٧٤م

الصلاة
خارج نطاق الأوقات الخمسة

البدايـة

في ذروة الضجيج انبثق الدامومـــي من الظلام كالقدر، إذْ لم يره أحدٌ في النجـع منذ ثـلاثـة أيـام. حتى أنهم نسـوه في غمـرة الصـراخ والضجيـج والاستغاثات، نسوا أن يستنجدوا به كالعادة.

تعلّقت أبصارهم به وهو يتسلل ـ عبر الظلام ـ باحثاً ببصره عن الشيخ مهمـــدو. لمع البـرق وقصف الرعـد. . احتدَّت شـرشرة المـطر. اقترب الدامومـــي من الشيخ وهمس:

ـ ماذا يحدث هنا؟

رفع الشيخ مهمـــدو رأسه ثم عاد فنكسه، رأى الدامومي انـه يمسك بأطراف مسبحته. صمت الشيخ، فخال الدامومي انه لن يجيب على سؤاله، ثم:

ـ كما ترى، كما في كل مرة. السيل خيرات الله. بدونها شر. . وبها شر!

صمت الشيخ. هدأ الضجيج. ربما انشغلوا بالاصغاء لحديثهما. لاحظ أنهم يراقبونه في الظلام. أردف الشيخ بصوت عميق:

ـ إنها سنة الحياة. .

لمع البرق بشدة. عاد الدامومـــي يسأل في حين زمجر الرعد:

ـ الخسائر كثيرة؟

إنتظر الشيخ مهـمدو حتى خرس الرعد ثم قال:

ـ ثمة ما هو أسوأ من الخسائر يا ولدي...

انتفض الدامومي.. اقترب من الشيخ الذي كان يجلس القرفصاء متلفعاً بيطانية مستسلماً للمطر:

ـ هل تعني أن..

سارع الشيخ:

ـ لا. لا. ليس بعد.. ولكن ألمْ تسمع استغاثات خالتك زهرة بالله؟..

أصاخ الداموسي السمع. كان الضجيج يخفت حيناً ويحتدُّ أحياناً فيغطي على كل شيء حتى على الرعد المجنون. أصاخ الداموسي السمعَ ثم تساءل:

ـ أنا لا أسمع شيئاً. الضجيج كيوم القيامة. ولكن.. هل حدث لها مكروه؟

تردد الشيخ قبل أن يجيب:

ـ لَمْ يحدث لها شيء. ولكن حدث...

رفع رأسه نحو الداموسي الذي ظلَّ واقفاً ينهال عليه المطر في الظلام.

نظر في عينيه.. اِلتقت مقلتاهما برغم الظلام الشديد. لاحظ الداموسي أن عيني الشيخ بدأتا تدمعان لسبب ما، سبب قاهر ولا شك. أحسَّ فجأة انه سيقول شيئاً خطيراً: كارثة وقعت أو ستقع.

ـ تميما!

قالها الشيخ ونكس رأسه بسرعة. قفز الداموسي نحوه.. جثا على ركبتيه أمامه... أمسك بيده فتوقف الشيخ عن مداعبة حبات المسبحة، نظر في حدقتي عينيه. وحاول أن ينطق بلْ همهم بكلمات سريعة غير مفهومة بصوتٍ واهن. لم يعدْ الشيخ قادراً على متابعة التحديق وأسبل جفنيه. قال وعيناه مغمضتان:

ـ لا. ليس بعد... ليس بعد.

بصوت غاضب انفجر الدامومي:

ـ ولكن ماذا تعنيه بـ «ليس بعد».. شيخ مهمدو.. لا تكذبْ عليَّ.. إمَّا أن يكون كل شيء قد انتهى.. وإمَّا...

قاطعه الشيخ بصبر:

ـ انظرْ..

أشار بسبابته نحو الوادي. التفت الدامومي بجنون. قال الشيخ بخيبة:

ـ إنها هناك!

عَبْرَ الظلامِ والمطرِ تفحَّص الدامومي الوادي الذي كان السيل يتدفق في أرجائه. أصاخ السمع للحظات. إلتفت نحو الشيخ وهو ما يزال جاثياً على ركبتيه!

ـ هل أنت على يقين من أنها هناك... أعني.. لم يجرفها..

بلع ريقه ثم:

ـ.. ليس بعد!

ـ إنها تصرخ. الضجيج كما قلت لي هو السبب. ولكن الربوة في وسط الوادي، لا تنس. إنها فوق الربوة رحمتك يا رب.

تساءل الدامومي وهو ينهض في حين عاد الشيخ لمداعبة حبات المسبحة:

ـ أَلَمْ يفعل الرجال من أجلها شيئاً؟

ـ إنهم ينتظرون..

سعل بحدة. ثم أردف بيأس:

ـ ينتظرون حتى يهدأ التيار قليلاً. أستغفر الله. رجال هذا الزمان كالنساء.. أنت تعرف أن..

قاطعه الدامومي بانفعال:

- يهدأ التيار، يهدأ.. إنه يشتدُّ.. أنت تعرف ذلك.. أنت ترى أن الوادي يموج بالماء حتى حافته.. والربوة صغيرة أنا أعرفها.. أنت تعرف..

ثم وهو يستدير ويهرول:

- يا ربي. أَلَمْ تعد لأرواح الناس قيمة. النساء تبكي. وثمة مَنْ يستغيث والرجال ينتظرون.. تفو... تفو..؟

اخترق صفاً من الرجال.. تابع سيره حتى أول خيمة.

الصراخ شديد. يكاد يتحول إلى عويل حقيقي. تبيَّن لأول مرة وبوضوح شديد صوت «زهرة» وهي تنتحب. وقف في مدخل خيمة الشعر. في الداخل تراكمت النساء والاطفال.. حنى رأسه ودخل. ضوء ينبعث من فنار معلَّق في سقف الخيمة. كفَّت النسوة عن الصراخ.

فجأة.. تعلَّقت أبصارهن به.. حتى «زهرة» كفَّت عن البكاء. ساد صمت مفاجىء.. لم ينبس احد. تقدَّم خطوتين وشرع يفكّ الخيط الذي يربط الفنار بالسقف. استنجدت «زهرة»:

- داسومي.. دامومي.. تميما.. تميما. بنتي. بنت..

اختنق صوتها بالدموع فعادت إلى البكاء. علَّق الفنار حول رقبته.. وفجأة أمسك بالعمود الذي يسند الخيمة ونزعه بعنف. اِنهارتِ الخيمة على رؤوس النساء فبكى الأطفال. خرج ممسكاً بالعمود الهائل والفنار المعلَّق حول رقبته يتدلَّى على صدره.. غمر صف الرجال بالنور وهو يخترقهم. بدأ يخطو نحو الشيخ مهمدو، خرجت خلفه مجموعة من النساء.. اخترقن صف الرجال. خيَّم صمت يخرقه بكاء الاطفال. لمع البرق، بعد لحظات تبعته كركرة الرعد. وقف حيث تكوَّم الشيخ ببطانيته.

- شيخ مهمدو تلزمني عصاة أخرى!

رفع الشيخ رأسه. تناول عكازاً وقدَّمه له وهو يتسلَّق ببصره العمود الهائل:

ـ خُذْ. لن يحفظ توازنك بالمقارنة مع.. ولكنه سينفعك على كل حال. خُذْ!

تناوله. وهمَّ بالمشي، ولكنه عاد يلحُّ بلهجة طفولية:

ـ شيخ مهمدو أعطني بطانيتك!

نهض الشيخ... نزع البطانية، وضعها على ظهر الدامومي.. تناول من ثوبه الفضفاض مساكِّين.. وشرع يمسك بهما البطانية حول عنق الدامومي الذي استسلم له محاذراً أن تحجب البطانية نور الفنار. عندما انتهى الشيخ همس:

ـ على بركة الله!

أمسك العكاز باليد الأخرى وأسند العمود الهائل على صدره. من خلال ضوء الفنار رأى عيني الشيخ تدمعان. أمسك بيده التي تداعب حبات المسبحة، خطر له أن يقول له: «صلِ من أجلي... وإذا لم أعدْ، إقرأ على روحي الفاتحة». تراجع بسرعة. ضغط على يد الشيخ. تناول العمود وخطا نحو الوادي. تبعته النساء في حين تسمَّر الشيخ في مكانه متابعاً الدامومي ببصره.. مداعباً حبات المسبحة بأصابعه متمتماً بالفاتحة!

همس رجل في الظلام:

ـ إنه مجنون.

سمعه الشيخ فَنهَرَه قائلا:

ـ اخرسْ يا امرأة!

قال آخر:

ـ إنه يعرف ما يفعل دائماً!

عاد الأول يهمس محاذراً أن يسمعه الشيخ:

ـ أنْ يهلك انسانٌ أفضلُ من أنْ يهلك إثنان.

سمعه الشيخ فاقترب من صف الرجال وصرخ بوحشية:

ـ إسكتْ يا كلب.. أنت إمرأة!

ساد الصمت. وعادت العيون تتعلّق بنور الفنار المبتعد. عند حافة الوادي بدا السيل معربداً. الوادي يموج حتى الحافة.. الماءُ عَكِرٌ من فرط التيار الهادر.

زغردت إمرأة زغرودةً حادة.. وبكت «زهرة» بصوت عال في حين بدأ الدامومي في الاقتراب من الحافة. تناول العمود الضخم وألقى به في الماء. لكن كاد التيار ان يجرفه.. أمسك به بقوة.. يئست النساء فاشتدَّ صراخهن، لحظتها وصل الشيخ «مهمدو» راكضاً.

شرع يراقب الدامومي وهو يقفز إلى الماء. استنجد بالأولياء والصالحين عندما لاحظ اختلال توازنه.. تابعته النساء ـ من خلال دموعهن ـ بذهول.. ولكنه نجح في الصمود في وجه التيار في النهاية. بدأ يخطو بحذر شديد مستنداً إلى العمود الهائل. سمع الدامومي الشيخَ وهو يصرخ:

ـ حذارِ من الحفر في قلب الوادي.. إنها عميقة حاول أن تتحاشاها دائماً.

بدأ الدامومي يقاوم التيار الجبار مبتعداً في حين ظلّت قامته تتضاءل باستمرار كأنه يغرق رويداً رويداً!

بداية البداية

حالما تتجمَّع سحب في رحاب السماء أو تتهاوى زخات مطر يتعرَّى الأطفال في النجع ويندفعون إلى الخلاء صارخين بصوت جماعي:

ـ أمطري.. أمطري.. فلم يبق من التمر سوى حبات النوى ملقاة في الخريج وماؤك يا الله كامن في السماء.

أمَّا الكبار فيتقرفصون في الخباء يحتسون الشاي الصيني الأخضر ويتحدثون عن هموم الدنيا وخوارق القدرة الإلهية ومعجزات الصحابة وسرِّ

القحط الذي رانَ على النجع خمس سنوات كاملة. . وغـالباً مـا يستعيدون ذكرياتهم عن أهم المعارك التي خاضوها ضد الطليان والفرنسيين والقبـائل الأخرى زمن السلب والنهب والفوضى ثم يرمقون الأطفال باعجاب ورجاء ولا ينهـرونهم كما يفعلون في العـادة. وفلسفتهم في ذلك أن الاطفـال أقـرب المخلوقات إلى الله. . وهو يستجيب لدعائها أكثر مما يستجيب لدعاء الكبار حتى الأتقياء منهم: أولئك الذين يحفظون القرآن ويرتلونه آنـاء الليل وأطراف النهار. فبعد أن أعياهم ذبح القرابين، وإقامة ولائم (ختم القرآن) استجداءً لرحمته تعالى، لم يعدْ أمامهم سوى تشجيع الأطفال على التعرّي والاندفاع إلى الخلاء، وترديد ذلك النداء التقليدي.

ـ أمطري. . أمطري، فلم يبق من التمر سوى حبات النوى ملقاة في الخريج وماؤك يا الله كامن في السماء.

ولكن المطر لا يسقط، فغالباً ما تتبدد السحب ويعود الأطفال إلى الخباء خائبين. أمّا الكبـار فكثيراً مـا يداهمهم اليـأس. . ولكنهم لا يستسلمون، ويظلون على يقينهم بأن الجفاف وهلاك قطعان المواشي مجرد عقاب إلهي للبشر على خطاياهم في الدنيا. وإذا لَمْ تجدِ القرابين، وولائم ختم القرآن في استدرار عطفه فينبغي الصمود في وجه الامتحان.

إستمر ذلك حتى منتصف ليلة شتوية باردة.

إنـطلقت صرخـة حادة معلنـة قدوم السيـل، وكـان ذلـك إعـلان بـأن كوارث ـ حتماً ـ ستصاحب قدوم البشرى.

فخيام النجع تتناثر في قعر الوادي ولإنقاذ ما يمكن انقاذه، انطلق الرعاة لإخراج القطيع من الوادي. النساء تأبطن أطفالهن وركضن. الرجال تولوا أمر العفش والخيام والمؤن.

بكاء أطفال، ولولة نساء، صياح رجال. صراخ، ضجيج. عويل. اختلط الحابل بالنابل. . وجاء يوم الحساب حتى أن الجميع نسوا أن السيل نعمة إنتظروها طوال خمسة أعوام عجاف.

أمّا زهـرة فقد استيقظت على الصراخ مذعورة في بيتها الذي يقع تحت ربوة تتوسّط الوادي. كان مـوقد النـار متقداً. . و «تميمـا» نائمـة في زاوية الخباء، وعندما رفعت رأسها وفركت حدقتيها المليئتين بالنوم سمعت جمرات النار تنطفىء إنطفاء مفـاجئا. . فتحت عينيهـا فرأت أن الخيمـة تغرق في الماء. . خافت وزحفت. . أحسّت أن أطرافها مشلولة، والموت يقترب.

لم تعدْ تقوى على الوقوف على قدميها. . واصلت الزحف والولولة. بدأ الماء يغمرها. الموت يقترب أكثر. عويلها يحتد. و. . فجأة احتوتها يدين قويتين.

لم تعد تذكر شيئاً. عند حافة الوادي كان كل شيء قد انتهى، نَصَبَ الرجال خيمة للنساء مؤقتا. . وبقوا هم في العراء. البرق، الرعد، ثمَّ بدأ المطر يتساقط لأول مرة. . كان ثمة خسائر. حمدوا الله على أن السيل لم ينتزع قـرابين آدمية. ولكن زهرة عندما عادت إلى وعيها تذكرت. . صرخت:

ـ تميما. . ابنتي. . تميما.

أصاخ الرجـال السمعَ. . السيـل يزمجـر بشراسـة. . هناك، في قعـر الوادي، ثمة صياح. . صراخ. . ركض أحد الرجال حتى الحافة، لحق به الشيخ «مهمدو». . صرخ الرجل:

ـ تميما. . الربوة. . الربوة!

السيـل يتدفق بعنف. . التيـار في ذروة جنونـه. لم يعد ثمـة أمل في إنقاذها. تبادل الرجل مع الشيخ «مهمدو» نـظرات سريعـة. نكس الرجـل رأسـه. أدرك الشيخ أنـه خائف. عـادا معاً إلى الخبـاء حيث تجمهر بقيـة الرجال. طمأن الرجـل زهرة إلى أن تميمـا فـوق الربوة. تلفّع الشيخ «مهمدو» ببطانية. تناول مسبحته. . تقرفص في العراء. . حوله وقف الرجال. قال أحدهم:

ـ ينبغي الانتظار. . ربما هدأ التيار، فيما بعد!

لاذوا بالصمت. شرعت النساء في البكاء وانبثق «الدامومي» من الظلام!

الدخان والنار

الدامومي مقطوع من شجرة. ماتت أمه بعد ولادته مباشرة. بعد سنة مات الوالد. عاش عند عمه فمات عطشاً عندما كان يتفقد إبله في أحد أيام الصيف القائظة. ومنذ أنْ ماتت والدته نَعَتَهُ القوم بالنحس! وأيقنوا من ذلك بعد وفاة الوالد والعم فخشي كل أقاربه التكفل بأمره. منذ ذلك الوقت لم يحيا الدامومي حياة مستقرة، عاش متنقلاً بين المضارب في صباه، وبرغم حذرهم منه إلّا أنهم عطفوا عليه بشكل أو بآخر ولم يضطهدوه أبداً، يأويه هذا ويطعمه ذاك حتى كبر فعمل راعياً عند أحد الأثرياء مقابل معزة واحدة في العام إلى جانب المأكل والملبس. أصبح رجلاً فحلم بالزواج، خطب وتزوَّج فتاة مطلقة طلقها بعد عام ثم تزوج فتاة عذراء وطلقها أيضاً بلا سبب واضح. قيل ـ بعد ذلك ـ أنه مصاب بالعجز الجنسي. وشاعت في النجع شائعة مؤدَّاها أن مطلقته الأخيره ظلَّت عذراء كما هي. أمَّا هو فلم يحاول أن ينفي ذلك قط. عاش في خيمة في النجع وحيداً ولكن صلته بالناس لم تنقطع برغم انطوائه وعدم مخالطته لأنداده من الفتيان، وكانت أقوى صلاته مع الشيخ «مهمدو»، فغالباً ما يتبادلان الزيارات، ويُشاهدان عقب صلاة المغرب يثرثران ويحتسيان الشاي عند أوتاد خيمة الشيخ مهمدو.

كان الدامومي يرعى جماله الثلاثة بنفسه. أمّا أغنامه السبع فترعى مع أغنام الشيخ بالمجان.

ومما يدهش أن الدامومي حظي بإعجاب كل الفتيات برغم ما يُشاع من أنه مصاب بالعجز الجنسي، ربما لأنه يتقن الغناء ويتمتع بصوت حزين وعميق، وهذا مما يثير الفتيات كثيراً في النجع. وربما لأنه كان يحفظ الأشعار ويذكر مجموعة هائلة من خرافات العجائز، وأساطير الطوارق و.. ربما لأنه أقوى رجال النجع، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يصرع جملا هائجا، أو يروِّض ناقة شاردة أو يمتطي ظهور المهاري أثناء عَدْوها. لذلك تعوَّد كل الأهالي أنْ يلجأوا له عندما تعييهم الحيلَةُ والوسيلة في ترويض جمالهم. وكان يروق لهم ان يسموه «المسمار» لقدرته الخارقة على الثبات

فوق ظهر المهري أثناء ركضه.

ولكن حدث أنْ أحبَ الدامومي.. أحب تميمـا اليتيمة الأب، ويُشاع انها أحبته أيضاًفمضغت الأفواه لقاءاتهما المستمرة في حفلات الاختلاط التي يقيمها الفتيان والفتيات في سهرات ما بعد منتصف الليل، مما دعا «زهرة» أن تحجب «تميما» في البيت وتمنعها من الاشتراك في حفلات الاختلاط لكي لا تلتقي بالدامومي بعد أن أشبعتها ضرباً بسوط المرحوم الوالد. فما كان من الدامومي إلاّ أن خطب «تميما» بواسطة الشيخ «مهمدو»، ولكن زهرة رفضت بشدة. قالت له أن الدامومي ليس رجلاً، وهي بحاجة إلى ذرية لكي تشعر بأنها جدة حقيقية والدامومي لا ينجب لأنه عاجز جنسيا. حـاول الشيخ ان يقنعها بأن ذلك مجرد إشاعة، كذوبة من الأكاذيب الكثيرة التي تتردد كل يوم في النجع وفي الدنيا كلها. ولكنها أجابته بالمثل التقليدي «لا دخان بلا نار» وضربت له مثلا بالفتاة التي تزوَّجها وظلَّت عذراء، وفي النهاية أقسمت له بأن تميمـا لن تخرج لتعيش مع الدامومي إلاّ على جثتها. عاد الشيخ «مهمدو» خائباً لأول مرة في حياته... وهو الذي خطب وزوَّج كل شبان النجع. آلمه أنْ يخيب في أن يخطب للدامومي بالذات. أخبر الشيخ الدامومي بما حدث بعد صلاة عشاء أحد الأيام، ولكن الدامومي علَّق بهدوء وهو يرشف الشاي الصيني الأخضر:

ـ ولكني سأتزوجها!

في ضوء القمر راقب الشيخ حدقتيه اللامعتين المركزتين على جمر النار في تحد. قال الشيخ بهدوء أيضاً:

ـ ربنا يستر!

أُشيع في النجع بعد ذلك أن الدامومي يلتقي سراً بـ تميمـا في المراعي برغم الحصار الذي فرضته زهـرة عليها. حتى كان منتصف تلك الليلة الشتوية الباردة!

التيـــار

بمجرد أن استعاد توازنه حاول أن يتبين قمة الربوة في الظلام. لم يبصرْ شيئاً. أدرك أن ضوء الفنار يحول دون الرؤية مسافة أبعد. الماء عكر ومثلج. التيار عنيف، تشاءم وهو يتذكّر أن ذروة عنف التيار ستكون في قلب الوادي. عند حذاء الربوة بالضبط، انتزع العمود وألقى به مسافة إلى الأمام، تبعه بخطوة حذرة ولكنها شاسعة. التيار أعنف.. والوادي أعمق.. إكتشف حاجته إلى عصاة مساوية في الطول لعمود الخيمة، عكاز الشيخ «مهمدو» لا يحفظ التوازن حقاً، ويجعله يعرج باستمرار. ينبغي مواجهة التيار بعصاتين مساويتين بالضبط، علّق العكاز في رقبته.. ظلّ مقوساً ظهره، متكئاً على العمود في شكل زاوية حادة ثم التقط أنفاسه استعداداً للخطوة التالية. أحس بالسيل يحفر تحت قدميه بدأب. سارع بانتزاع العمود. ألقى به إلى الامام حريصاً على ان يلقي بثقل جسمه عليه دائماً رغم بعده ثم خطا خطوة هائلة.. تجاوز العمود قليلا.. مال جسمه إلى الخلف حيث تخلّف العمود.. تعمّد ذلك حتى لا يواجه التيار أعزلاً.. أسند العمود ثقل جسمه.. اشتدّ عنف التيار ولاحظ ان المياه بدأت تلامس قاعدة الفنار.. قدماه تتراقصان في الهواء.. فكر بسرعة.. ينبغي التقدم باستمرار.

إنتزع العمود وألقى بثقل جسمه ضد التيار مواكباً اللحظة التي تستغرقها عملية نزع العمود من الأرض إلى الأرض. ألقى به هذه المرة بإعياء شديد.

أدرك ان التيار المسعور في ذروة جنونه. حفر الماء تحت قدميه، فتأرجح في الهواء في اللحظة التي سحب فيها نفساً عميقاً. لم يعد يشعر بالبرد. ما زال المطر يتساقط، ولكنه يستحيل رذاذاً. أحس بثقل البطانية فاستشعر عدم حاجته لها. على ضوء الفنار شاهد أفعى تمرق بسرعة مستسلمة للتيار، وربما ميتة على الأرجح. لم يخف. لم يقشعر كما كان يحصل معه عادة عندما يسمع مجرد فحيحها، أو يشاهد آثارها تحت الحشائش البرية، ولكن القشعريرة تتبدد بمجرد مشاهدته لها، لحظتها فقط يشعر باطمئنان وبرغبة

وحشية في ارتكاب جريمة قتل، وكان يرتكبها دائماً. لماذا لا يتبدد خوفه إلاّ عندما يراها؟.

ربما لأن الجندي ينسى كل شيء، ويبدو أشجع ما يكون عندما تبدأ المعركة فقط.

بدأ جسمه يتفصَّد بالعرق. أحس بضرورة ان يلتقط نفساً. توقف ملقياً بثقل جسمه على العمود. السيل يحفر تحت قدميه، يسعى لأن يقلبه. تأرجح. تذكَّر أنه يقتلع أعمق جذور الحشائش والأشجار بهذه الحيلة. قاوم. كان يبدل موضع قدمه كلما شعر انها ستتأرجح ويقف على الأخرى دون أن يبرح مكانه. قرر أن يواصل فألقى بالعمود مسافة قريبة.. سيصرعه التيار إذا ألقى به أبعد.. خطوة أخرى. إرتطم قدمه بحجر كبير فاختلَّ توازنه حتى كاد أن يسقط. قاوم بجنون.. أفلح في استعادة توازنه بمساعدة العمود.. التيار يزداد ضراوة دون توقف.. الوادي يبدو أكثر عمقاً مع كل خطوة. بدأت المياه تغمر الفنار، ولكن الضوء ما يزال ينبعث منه. أحس بالخطر وباليأس.. لأول مرة يشعر بيأس كهذا في حياته كلها: خطوة، خطوتان، إنطفأ الفنار، لم يأسف لذلك، خطوة ثالثة، ورابعة.. و.. سقط في حفرة. قبل أن تغمره المياه كلياً صرخ بصوت إستسلامي عميق:

- يا سيدي عبد السلام الأسمر!

و.. غطس. شرب الماء حتى شبع، تحت الماء خُيل له في لحظة خاطفة أنه سمع أصواتاً من العالم السفلي، ملائكة، عزرائيل.. تميما حول خاصرتها مسبحة الشيخ «مهمدو». الموت، لحظة الحساب. الشهادة. الشهادة. بدأ يتدحرج.. يتدحرج.. يتدحرج أشهد أن لا إله إلاّ.. وفجأة أحس بأشواك. ماذا؟

أشواك. آه. شجرة سدرة. تشبث بأغصانها وبقوة خرافية نهض على قدميه. بطانية الشيخ، عكازه، الفنار، جرفهم التيار.. ظلَّ متشبثاً بغصن السدرة فيما كان التيار يدفعه بشراسة كلب مسعور. في فمه حشائش وروث إبل.. و.. خنفس، بصق وتقيأ، حمد الله على أنها ليست عقرباً. الأفاعي

والخنافس السوداء تموت في الماء. العقرب وحدها تقاوم، لا تموت. إرتجف وشعر بجوع. إكتشف أن العمود الهائل ما يزال في كفه اليمنى. استغرب ذلك وحمد الله للمرة الثانية. بلا تفكير صرخ:

- تميما.. تميما!

صمت وحشيٌّ تخرقه زمجرة التيار الكاسر.

ركبتاه تصطفقان.. ترقصان في الفراغ. لولا شجرة السدرة لاستسلم نهائياً. تساءل ذاهلاً مذعوراً: أيمكن أن يكون الموت بهذا السوء. تذكَّر تميما. ينبغي أن يعرف أولاً أحية هي أم ميتة؟ تنفَّس بعمق. في اللحظة التي أفلت بها الغصن وأمسك بالعمود بكلتا يديه أبصر خيوطاً عميقة تنحدر عبر العمود. إنه الدم.

لحظتها شعر بيأس عميق وخالجه شعور بأن الدنيا كلها تتخلى عنه، حتى الله يتخلى عنه؟ فلماذا؟ شجرة السدرة رحمة منه ولكنها لن تتكرر أبدا. فإمَّا أن يصل الربوة أو يموت. يبقى العمود وحده. هذا الجماد. هذه الرحمة، هذا الصديق الحليف. استجمع كل قواه الخائرة وخطا. ظلام. ظلام كثيف. بدأ يخطو في مواجهة التيار بالضبط. قدَّر المسافة التي تدحرجها بهدف تحديد موقع الربوة في الظلام. خامره شعور مبهم بأن عليه اجتياز المكان الذي تدحرج منه ببضع خطوات واضعاً في إعتباره أن يفعل ذلك من الجهة الاخرى، الأقرب إلى الربوة والأبعد من الحفرة.

إكتشف ان المشي ضد التيار يبدو أيسر نوعا من محاذاته. استمر يخطو، ويخطو. لا شك أنه يقترب و..

همّ بأن يضع قدمه فشعر بها تهوي فبادر بسحبها وتوقف..

حفرة. بلا تفكير هذه المرة ثبت العمود في التراب، وصرخ صرخة وحشية قافزاً في الهواء قفزة هائلة بمساعدة العمود. سقط أخيراً.. أدرك أنه تخطاها.. إنكبَّ على وجهه فارتطم بصخرة. صخور.. صخور، آه الربوة.

بدأ يتسلقها ممسكاً بالعمود زاحفاً على بطنه. لم يتوقع أن تكون الربوة

بهذا الارتفاع ولكنها تظل مهددة إذا استمر المطر في السقوط. هذا هو مركب النجاة. الهدف. الحقيقة فيما اذا كانت حية أم ميتة: الربوة!

الحــب!

بحث ببصره في الظلام. رأى كومة سوداء. همس فيها كان قلبه يخفق بشدة:

- تميما!

عندما أجابته إزدادت سرعة نبضات قلبه. اقترب أكثر. كـانت تتشبث بأكبر صخرة فوق الربوة مستلقيـة على ظهرها في حين تدلّت رجلاها إلى أسفل.. في الماء!

أمسك بذراعها، ودلّى قدميه إلى أسفل مقلّداً حركتها، ولكن قدميه لم تلمسا المياه فهي أطول منه قامة.

لم ينبسْ. ظلّ صامتاً لاهثاً. إمتدّت يدها وانتزعت لثامه المبلل فلم يشعر بحياء. شرعت تعصره بيد واحدة.. ممسكة ذراعه باليد الاخرى. همست:

- ظننت أنك ستموت!

صمت. عادت تقول بنبرة أقسى:

- لماذا جئت؟

لم يبدو أنه غضب. أجاب، لاهثاً باختصار حاسم:

- لم أعتقدْ ان الربوة بهذا الارتفاع!

بعد فترة صمت سأل:

- لماذا لم تجيبي ناديتك مرتين؟

- إعتقدت أنك ستيأس من أني ما زلت حية...، و... ستعود!

أحسَّ بالمياه تغمر قدميه فأدرك انها آخذة في الارتفاع. الربـوة مهددة والليل ما يزال طويلاً. لم يبالِ. سأل ويده ما زالت ممسكة بذراعها:

- تذكرين آخر يوم في المرعى؟

ـ أذكر. في الصيف الماضي.
ـ يوم قائظ جداً، ولكنه جميل.

صمتت. بدأ طوفان المياه يعلو.. في لحظة نسي كل شيء واقترب منها.

المأتم

تابعوا ضوء الفنار ـ في خشوع ـ وهو يتضاءل بالتدريج، وعندما انطفأ أيقنوا في قرارة أنفسهم أنهما سيهلكان لا محالة. سارع الشيخ مهمدو يطمئن نفسه:

ـ ربما انطفأ من تلقاء نفسه!

سمعوا ضجيجاً. و.. كلاماً. أصاخوا السمع. كبُّر الشيخ مهمدو:

ـ يا رسول الله. الحفرة!

اسرع يتلو آية الكرسي. ألحق بها الفاتحة. بعدها نادى بأعلى صوته:

ـ دامومي.. دامومي!

تاه النداء في الصمت. إستمر الصمت. حشرجة. أنصتوا باهتمام أشد. خرس الجميع حتى الأطفال. بعد قليل سمعوه يبصق ثم يتقيأ. علت ضجة قصيرة مفاجئة. رفع الشيخ «مهمدو» رأسه ويديه الاثنتين معاً نحو السماء وقال كمَنْ يخاطب نفسه:

ـ الحمد للرحمن. الحمد للرحمن. السدرة!

توقف المطر. استمروا في متابعة الانصات. و.. إنطلقت الصرخة المجنونة.. لم يسمعوا بعدها شيئاً أبداً.

أنصتوا حتى يئسوا. نادوا دون جدوى، فأيقنوا أن كل شيء قد انتهى. لحظتها تذكّروا أنهم نسوا تميما. وقفوا طويلاً. هتف رجل بإسمها ثلاث مرات.. أجابه الصمت وخرخرة التيار المارد.

قال رجل بصوت واهن كأنه ينعي كل شيء:

- التيار يحتدُّ يا جماعة. الوادي بدأ يفيض!
أردف آخر:
- ربما احتجنا إلى اقامة المتاريس.

بدأت زهــرة تنتحب بصوت متقطع وخافت، ولكنه عميق، على عادة النساء عندما يموت إنسان عزيز. البكاء في صمت أكثر مدعـاة للحزن من تمزيق الثياب ولطم الخدود. هذه فلسفة الطوارق إزاء الموت.

أدرك الشيخ مهمــدو أن المأتم قد بدأ بدون إعلان فانخرط يسبِّح بحمد الله، ويقرأ القرآن.

عاد الجميع يتقدمهم الشيخ الذي أمر بإعداد الشاي وإعادة نصب الخيمة المنهارة. تقرفص الرجال في الخارج على الأرض الغارقة في المياه.

شرع أحدهم في تجميع الحطب. ولجت النساء إلى الخباء وشـرعن ينتحبن. أسـوأ أنـواع النحيب. النحيب الصـامت. بـدأت «زهـرة» تتقبـل التعازي. في الخارج حاول الرجل أن يشعل النار دون فائدة، كان الحطب مبللاً. نفخ طويلاً حتى شعر بالدوار. بـادر آخر وجـاء من الخباء بحـطب وبزجاجة غاز. حفر حفرة صغيـرة في التراب النـدي وألقى فيها بـالحطب وغمرها بالغاز، عندما أشعل عود الثقاب رأوا وجوه بعضهم لأول مـرة منذ الأمس. كانت مخيفة وغريبة حتى أنهم بدأوا يرمقـون بعضهم البعض في دهشة، كأنهم يرون بعضهم لأول مرة. على ضوء النار رأوا الشيخ «مهمدو» ينكس رأسه ويسدل اللثام على عينيه فعرفوا أنـه يبكي، في حين لـم تكف أصابعه عن مداعبة حبات المسبحة.

الصــلاة

بعد أن احتسوا «الطاسة» الأولى شكى أحد الرجال من طول الليل. بعد الطاسة الثانية أبدى رجل آخر نفس الملاحظة. وقبل الطاسة الأخيرة لاحظ ذلك ثلاثة رجال بصوت جماعي تقريباً.

عادوا يوقدون النار. إنتظروا حتى همدت. . عادت براريد الشاي تكركر فوق الجمر. قال الرجل الذي يحضِّر الشاي نافذ الصبر:

ـ سهرت مائة مرة من مغرب الشمس حتى مطلعها ولم أر في حياتي ليلة أطول من هذه.

وافقه الشيخ بهزة من راسه.

علق آخر:

ـ يُخيل لي أن النهار لن يطلع أبدا. كم أكره الليل عندما يطول!

صمت لحظة ثم أردف كالمستدرك:

ـ في الشتاء!

قال ثالث بصوت يصطنع الحكمة والعلم ببواطن الأمور:

ـ الليل لا يطول أبداً. الليل هو الليل دائماً!

تدخل الشيخ مهمــدو في الحديث لأول مرة بعد صمت طويل:

ـ بل يطول.. ويقصر.

ـ يطول في الشتاء.. ويقصر في..

قاطعه الشيخ بحماس مفاجىء:

ـ لا.. يطول عندما يكون ثمة ضحايا..

سعل وأضاف بهدوء:

ـ ضحايا بشرية!

تذكروا أنهم كادوا أن ينسوا الأموات.. أنهم في حضرة مأتم. ولذلك صمتوا طويلاً في حين استمر بكاء النساء المتقطع ينبعث من داخل الخباء. رفع أحدهم رأسه نحو السماء وقال:

ـ السحب تتبدد. النجوم في كل مكان.

أجابه آخر في خيبة:

ـ ولكن الليل باق. والظلام أسوأ ما يكون.

علّق ثالث ببلاهة:

ـ ربما الخسوف!

فكّر الشيخ مهمــدو طويلاً. كفّ عن مداعبة حبات المسبحة، رشف الشاي. ثم أعلن:

- في مثل هذه الأحوال تنفع الصلاة.. فقط!

علّق شاب في صوت شبه ساخر:

- ولكن ماذا سنصلي؟ صلاة العشاء صليناها، والفجر لم يطلع بعد؟

رمقه الشيخ على ضوء الجمر المتوهِّج مستنكراً في حين لكزه أقرب رجل.

صمت الشاب، فقال الشيخ وهو ينهض:

- هبّوا.. إلى الصلاة!

نهض الجميع نهوضاً آلياً. تيمموا ثم وقفوا جنباً إلى جنب في طابور طويل صوبَ القبلة في حين تقدمهم الشيخ مهمدو هامًّا بأن يكبِّر لولاً أن رجلا سارع مستفهماً:

- ولكن كَمْ ركعةٍ؟

التفت الشيخ، ثم قال بحرج:

- ركعتان.. أربع!

تنحنح ثم أردف:

- فلتكن ركعتان صلاة على الجنازة وركعتان قربى لله من كل مكروه!

قال الشاب في إلحاحٍ:

- ولكن الجنازة جنازتان!

تجاهله الشيخ، وكبَّر للصلاة.

الموت

استيقظ الشيخ مهمدو فجأة مع ميلاد الفجر، تساءل في ذهول عمَّا إذا كانت أحداث البارحة حقيقية أم مجرد كابوس. خُيِّل له أن ثمة مَنْ يناديه فسارع يبسمل ويلعن كل شيطان رجيم، وعندما تكرر النداء تساءل في دهشة عمَّا إذا كان النداء استمراراً لكابوس البارحة؟

زحف على ركبتيه ويديه خارج الخيمة محاذراً أن يزعج الرجال

المكومين في الداخل. في الخارج تقبل القبلة وتنفس بعمق مسبِّحاً بحمد الله. أصاغ السمع لحظات. ما يزال الوادي يعربد بالسيل. تناول المسبحة من جيب جلبابه، تقرفص وهم بالتيمم استعداداً لصلاة الفجر.. و.. لكن.

- مهمدو.. شيخ مهمدو!

انتفض واقفاً فسقطت المسبحة.. الدامومي بلا جدال. يا إلهي؟

هو لا يخاف الأشباح والعفاريت لايمانه بأنها تطلع للناس العاديين فقط لا للمشايخ وعباد الله الأتقياء. تشجَّع وخطا نحو الوادي في ذهول.. حتى أنه نسي أن يبسمل. إرتطم قدمه بحجر حاد فاكتشف أنه يمشي حافياً. هل يمكن أن يكون الدامومي حياً؟ تساءل في دهشة. عندما بلغ حافة الوادي تبيَّن على ضوء الفجر شبحاً يصارع التيار.

لم يتبين تفاصيل «الشبح» فشعر بقشعريرة سريعة، مما دفعه لأن يصرخ:

- دامومي!

خرق النداء الصمت. رغا جمل هائج، وثغا جدي بحدة، همَّ الشيخ بتكرار النداء فسبقه «الشبح»:

- الحبل.. شيخ مهمدو.. الحبل.

أيقن الشيخ أخيراً أنه الدامومي لحماً ودماً. ركض نحو الخيمة حيث تكوَّم الرجال. أخذ يهزهم بعنف وهو يردد:

- يا رجال.. هيا.. الساعة.. القيامة. الدنيا زحفت وأنتم نيام كالنساء!

تساءل أحدهم في ضيق وهو يدعك عينيه النائمتين:

- هل طلع النهار؟

- النهار طلع. وطلع معه الدامومي.. هيا!

- ماذا؟

تساءل الرجل في دهشة وهو يقفز خارج الخيمة.. بعدها تدفق الرجال نحو الوادي. وصل الشيخ يجرجر خلفه حبلاً من ليف النخيل من النوع الذي

يروِّضون به الجمال الشاردة. بدأ الضجيج يحتدّ. بعد قليل تقاطرت النساء أيضاً. شرع الضوء يغمر الكون. الداموجي يقترب فوق ظهره شبح أسود.. ماذا؟ دقَّ قلب الشيخ بعنف وعاد يتساءل في جزع : ترى حية أم ميتة؟ بَسْمَل وقذف بطرف الحبل ممسكاً بالطرف الآخر. سقط على بعد بضعة أمتار بحيث لم يستطع الداموجي أن يطوله، تقدَّم أحد الرجال وتناول الحبل من الشيخ الذي سحب نَفَساً عميقا يائسا من فرط الجزع والخيبة. بصق الرجل في كفيه وقذف بالحبل قذفاً هائلاً. تعلقت الأبصار بطرف الحبل المحلق في الهواء. عندما سقط هَوَت قلوبهم معه، ولكن الداموجي تلقفه بيد واحدة، ظلت اليد الأخرى متشبثة بالعمود الهائل. تسابق الرجال لشد الحبل. صرخ «الداموجي»:

- هيه.. لا تجذبوا الحبل. أمسكوا.. أمسكوا به فقط.

كان صوته مبحوحاً.. خائراً.. كأنه يختنق.

توقف الرجال عن جذب الحبل. التيار الوحشي ما يزال عنيفاً يتحدّى الجميع.

بدأ الداموجي يخطو نحو الحافة بمساعدة الحبل مخلِّفا الطرف الآخر وراءه رويداً رويداً كأنه يتسلقه، دون أن يتخلى عن عمود الخيمة الجبار، ربما لأن شعوره ما يزال طافحاً بالخطر. الشعور بالخطر يؤدي إلى فقدان الثقة بالحبل وبسواعد الرجال، وبالناس، بالدنيا كلها. العمود هو السلاح الوحيد في وجه العدو الشرس.. في وجه التيار. وما عداه قبض الريح.

يقول الأجداد: لقمة شعير في المعدة أفضل من قطعة لحم في الفم. فما يدري المرء.. إذا أرعبه «شيء» قذفها هلعاً!

فكر الداموجي في ذلك وهو يرتطم بصخرة ويستند إلى العمود متشبثاً بالحبل. وصل الحافة الغارقة في الصمت والإنتظار. عيناه جاحظتان وتميما تمتطي ظهره.. رجلاها تلتف حول خاصرتيه ويداها تتشبثان برقبته كأنها تخنقه. مدَّ أحد الرجال يده وجذبهما معاً.. تلقف آخر «تميما».. حولها تجمهرت النسوة، بدأ العناق. إنهمرت دموع الفرح. لعلعت الزغاريد.

هرول الشيخ مهمدو نحو الدامومي. عانقه وفي عينيه دهشة وحب ودموع. تمتم بانفعال:

لك الحمد.. لك الحمد اللّهم.

استمر الماء يقطر من جلباب الدامومي الممزق. على خده تسيل دماء. وفي يده دماء أيضاً. لاحظو أن عينيه تزداد جحوظاً. وعندما خارت قواه وسقط تلقفه الشيخ، في حين أسنده العمود أيضاً. كان متشبثاً بالعمود حتى عندما فقد الوعي!

في خيمة الشيخ شرع الداومـي يهذي باسم تميمـا طوال تلك الليلة.

وفي الليلة الثانية عاد يحلم بصوت عال. ولكنه لم يقلْ كلمة واحـدة مفهومة برغم أنه تكلم كثيراً.

وفي فجر تلك الليلة بالذات شرع يتقيأ دماً أسوداً.

الميــلاد

بعد مضي تسعة أشهر على وفاة الدامومي أنجبت «تميما» توأمين إثنين. أطلقت على أحدهما «تانس» وعلى الآخر «وانس»، وهما بطلان لأسطورة مثيرة كان قد سردها على مسمعها الدامومي عندما إحتجزهما السيل في عرض الوادي في تلك اللية الشتوية الباردة!

قبل ذلك نسي الناس الدامومي تقريباً.. يذكرونه فقط عندما يتذكّرون أحداث تلك الليلة الشتوية الباردة. بيـد أن ميلاد التوأمين أعاده إلى الأذهان مرة واحدة.

بعد الميلاد قامت القيامة، وتناقل الناس خبر الفضيحة وسارعت «زهرة» بطرد تميمـا من البيت، وتبرّأت منها أمام كل نسـاء النجع.

أمّا أحمـدو الذي كان قد هيأ نفسه لخطبة تميمـا فقد هدد بقتلهـا. لجأت تميما إلى خيمة الشيخ مهمـدو. وفي النهايـة اتفق الرجـال على الاجتماع وبحث الأمر.

نصبت خيمة خاصة للاجتماع. وعندما كركرت براريد الشاي الصيني الأخضر بادر الشيخ مهمدو:

- مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر!

لم يجرؤ أحد أن ينبس. كانوا يقدِّسون الِحكَمْ دائماً، خاصة عندما يسندها القرآن. تناول الشيخ مهمدو من رزمة الحطب عود سدرة مكتظ بالاشواك. على التراب الندي رسم دائرة كبيرة، ثم خرقها بقطر. رفع رأسه وقال بهدوء:

- رفضوا أن يزوِّجوها له بالحلال على سنة الله ورسوله!

التقت نظراته مع أحمدو الذي سارع يقول بنبرة تحد:

- هذا لا يبرر أن يغتصبها بالحرام!

- لم يغتصبها.

قالها الشيخ بحزم وخرق الدائرة بقطر آخر، استغفر الله همساً، ثم:

- ثم كان من الممكن أن تموت.

انفجر «أحمدو» محاولاً أن يؤلِّب الرجال ضد الشيخ:

- ليتها ماتت. وكفتنا شر العار!

رفع الشيخ رأسه بحدة:

- لقد دفع حياته ثمناً لإنقاذها. لا تنسوا!

خاطبهم بضمير الجمع، في حين جازف أحمدو في استفزاز:

- شيخ مهمدو. لا تدافع عن زانٍ وزانية.

لم يبد على الشيخ شعور بالاهانة. إكتفى بأن رسم في وسط الدائرة وحولها دوائراً صغيرة وكبيرة وخطوطاً فوضوية متقاطعة. وُزع الشاي، فألقى الشيخ بعود السدر في جمر النار وشرب الشاي الملبَّد بالرغوة في رشفتين. نكس رأسه وصمت. صمت الجميع. بدأ الرجل المقرفص لإعداد الشاي يمروِح الجمر. استمر الصمت طويلاً.

النهايـة

في صباح اليوم التالي أتى الشيخ مهمــدو بجمـل الدامومــي وأعـدَّ فوقه هودجاً لـ تميما وبعض الأمتعة والمؤن الضرورية لرحلة طويلة.

رحلت تميمــا بطفليها «تانس» و «وانس» وودَّعها الشيخ مهمدو لمسافة يوم كامل.

لم يعلمْ أحد ماذا حدث لـ تميمــا بعد ذلك اليوم؟

تاهت في الصحراء؟ أنقذها رعاة نجع آخر؟ افترستها الضباع والذئاب؟ ماتت جوعاً؟ حية أم ميتة؟ لا أحد يدري.

بل لم يذكرها أحد في النجع منذ ذلك اليوم. كانـوا يتحاشـون مجرد ذكـرهـا، وإنْ كـان كـل فـرد منهم يـذكـرهـا بينــه وبين نفسـه. ويــذكـر الجميـع ـ خاصـة أولئك الـذين لم يجرؤوا على أن يجـاهروا بتعـاطفهم معها ـ أن الشيخ مهمدو عندما عاد من مرافقته لهـا توضـأ وصلى ركعتين استثنائيتين صلاة أخرى خارج نطاق الأوقات الخمس.

موسكو
١٩٧٢

من مجموعـــة
«جُرعـة مـن دمٍ»
١٩٨٣م

ذرات الرمل التي تقرع الطبول

«أفيون الشعوب هوَ الخبز»
آرنسْت همَنجوَاي

قفز مصباح سعيد من الكابينة وسحب بطانية، إفترشها تحت شجرة برية شاحبة، تأمل رفيقه الذي انهمك يفتح مقدمة «اللاندروفر».. يفحص الزيت ويعرض الموتور للهواء. تابع الخلاء الصامت المستسلم للشمس بنظرة شاملة وأزيز المحرك ما يزال يخرق أذنيه. قال وهو ينهار فوق البطانية:

- جبور... ألَنْ أجد عندك حبة أسبرو؟ لقد أصابني ضجيج سيارتك بالصداع.

بصق على الرمال المتلألئة تحت شعاع الشمس، راقب البصقة وهي تختفي في مسام الرمال العطشى وأضاف:

- أحس أن مخي يغلي...

أقبل جبور يحمل رغيف خبز وعلب سردين وزجاجة مليئة بسائل أصفر:

- أنتم أهل المدينة لم تتعودوا على الصحراء.. انتظر، لديَّ دواء طبيعي للصداع ولكل الأمراض.. دواء أكثر فعالية من حبوب الأسبرو.

- ويسكي في هذا الحر! أعوذ بالله..

قال جبور وهو ينهمك في فتح علب السردين:

- سنرتاح هنا حتى المساء لنواصل رحلتنا بالليل. هذا أفضل للسيارة ولنا.

قطع رغيف الخبز بيديه، فتح الزجاجة وملأ كأسين، قال وهو يقدِّم له الكأس:

ـ لنتفق منذ الآن: كأس مني.. بكأسين منك. لا تنسى أنني أسوق السيارة.. ثم إنني لست شريباً مثلك.

سارع مصباح يتساءل كأنه ينفي التهمة:

ـ مَنْ قال لك أني شريب؟

ـ أنت ابن المدينة.. ثم.. ثم لا أعتقد أن حياتك في أوروبا خالية من هذه «الأشياء». أمَّا أنا فما زلت «تلميذاً» ولو عرف الوالد لأصابني فوراً بعيار من بندقيته... هذا برغم ما يُقال من أنه كان يحتسي اللاقبي في زمانه. آه... ما أقسى قلوب آبائنا.. كانوا يقتلون النخلة ليسكروا بقلبها.

قال مصباح سعيد بلهجة مَنْ يخاطب نفسه:

ـ آه.. أوروبا..

تناول من جبور «سندوتشا» وأضاف بنفس اللهجة:

ـ أوروبا.. استباحتني. كنت مثلك...

قاطعه جبور بحماسة وهو يقدِّم له الكأس الثاني:

ـ دع الحديث عن أوروبا بعد الكأس الثالثة، هذا حديث يهمني كثيراً. وعدوني ببعثة دراسية إلى فرنسا لتطوير مهنتي كمرشد زراعي. مرشد زراعي.. يا لها من مهنة... أتعرف كم هي متعبة؟ أوف.. هؤلاء الطوارق يرفضون المشاركة في أي مشروع زراعي.. ما زالوا يعتقدون أنهم نبلاء وفرسان الصحراء ويحتقرون الزراعة والمزارعين..

قضم قطعة من السندويش وأضاف وهو يمضغ الطعام ويلتهم الحروف:

ـ و.. لكنهم طيبون.. ينبغي.. مساعدتهم...

التفت نحو مصباح سعيد الذي اتكأ على جذع الشجرة ينظر إلى الأفق البعيد يراقص السراب:

ـ تبدو مهموماً.. لا تفكِّر في أوروبا الآن.. قلت بعد الكأس الثالثة.

الكأس الثالثة ستجعلك تكشف لي عمّا لا تريد كشفه من الاسرار..

ـ في أوروبا ليس ثمة أسرار..

ـ سنرى.. سنرى.. تبدو مهموماً برغم الكأس الثاني آه، تذكّرت.. ماَ رأيكم في شخصية متصرف غات.. سيكون سَبْقاً صحفياً.. رجل متواضع لم يحدثك كيف استطاع بمفرده.. مع أولاده الثلاثة أن يوقف فيلقاً فرنسياً من سيارات «كات كات» في إعتداء عام ٥٧. رجل أسطوري.. لا تنس هذه الحادثة في تحقيقك...

قاطعه مصباح في صوت حالم:

ـ كنت مثلك.. قبل أن أذهب إلى أوروبا.

تناول الكأس من جبور وأكّد في تصميم:

ـ لا تذهب إلى أوروبا.. لا أنصحك أن...

رفع جبور رأسه مستفهماً فنكس مصباح رأسه. تناول سيجارة من جبور وأضاف:

ـ هذا يصعب شرحه.. يصعب..

ـ حتى بعد الكأس الثالثة؟

ـ حتى بعد العاشرة.

ساد الصمت لدقائق. قال جبور وهو يمسح العرق المتدفق فوق جبينه بكم قميصه:

ـ أرجو أن تكون قد عدت بتحقيقات صحفية طيبة عن الحياة في الجنوب. أعترفُ أنك أول صحفي يتعامل بجدية مع مهنة الصحافة في هذا البلد...

أجاب مصباح سعيد بلهجة يائسة وهو يراقب دخان سيجارته السابح في الهواء.

ـ أوه، لا أرى فائدة من هذا كله...

إتكأ جبور إلى جواره، قال بثقة وهو يعانق الخلاء ببصره:

- ربما.. ولكني لا أرى ذلك. نحن قادرون دائماً على أن نفعل شيئاً من أجل هؤلاء الأشقياء. إنهم قانعون ببؤسهم.. مستسلمون لشقائهم كأنه قدر من عند الله. مهمتنا هي أن نجعلهم يؤمنون بأن ذلك الملازم الخبيث وحليفه ليسا سوى دميتين تصلحان للجلوس فوق الكراسي وكتابة التقارير المشبوهة إلى السلطات الملكية. من الصعب أن نحطِّم فيهم هذه القناعة.. ولكن واجبنا أن نحاول.

سحب نفساً من سيجارته وأضاف:

- والصحافة إحدى الأدوات في تنفيذ الواجب.

- الملازم رجل طيب.

تساءل جبور في لهجة استنكار:

- طيب؟

ثم بعد لحظة صمت:

- الطيب لا يقتل.

- يقتل؟

- طبعاً. قتل وجرح في مظاهرات ٦٤. وهو لم يغفر لي تنظيمي لهذه المظاهرات حتى اليوم.. يحاول أن يظهر لي الودَّ ولكن ذلك كله نفاق.. مجرد نفاق وخبث. وهو لا ينسى أنهم جرَّدوه من نجمتين بسبب تلك الجريمة.. ويعتقد أنني ما زلت أمارس نشاطاً سياسياً بين الأهالي. المصلحة أقوى من كل شيء كما ترى..

في عيني مصباح قفزت الدهشة. ولكنه تشبَّث بالصمت.. ينظر إلى السراب مُغَالِباً السكون والرمال ومتاهة الأفق.

* * *

كان المغيب يشرع في الهبوط عندما انطلقت اللاندروفر عبر الخلاء الممتد إلى الأبد. قال مصباح وهو يتأمل الصحراء من نافذة السيارة:

- الصحراء. كَمْ هي مخيفة وموحشة.

علَّق جبور وهو يتشبَّث بالمقود ويتابع امتداد العراء:

- نعم هي مخيفة وموحشة.. ولكنها كالحياة .. كالوجود نفسه.. سر من الأسرار تبدو غارقة في الوحشة والسكون.. تعدك بكل شيء.. تعدك بأثمن ما يمكن أن تهبه لمسافر تائه. تعدك بالماء.. وعندما تبحث عن الماء لا تجد أمامك سوى السراب.. سراب.. سراب.. بحر من السراب.. يتراقص أمامك ويُطلِع لك لسانه ساخراً ويقودك بلا هدف.. ولكن إِسمعْ.. ينبغي أن تقاوم دائما.. لا تستسلم للسراب على أنه سراب، فما سراب الصحراء إلّا حكمة.. لغز.. إبحثْ عن ماء حقيقي خلفه.. لا تدعْ لليأس فرصة للاستبداد بك أو استباحتك.. ففي النهاية، هناك، خلف هذا السراب اللانهائي ستجد بئراً، إنْ لم تجد واحة كاملة. المهم أن تقاوم.. هذا هو سر الصحراء الأول.

التفت نحو مصباح وطلب منه أن يولع له سيجارة. قال بعد فترة صمت يخرقها أزيز المحرك:

- الصحراء. إنها كالمرأة اللعوب.. تتمنّع.. وتتغنج ولا تهبك نفسها من المرة الأولى أبداً. ينبغي أن تحاول امتلاكها.. اكتشاف سرها للاستيلاء عليها. أنت لا ترى فائدة من هذا كله. أمّا أنا فأرى فائدة في كل شيء.. هكذا علمتني الصحراء. لقد استباحتك أوروبا لأنك استسلمت لها.

لم يعلّق مصباح بكلمة.. استمر يراقب الظلام يكتسح الخلاء.. ينصت لهدير المحرك.. يخرق أذنيه فتعاوده آلام الصداع.

* * *

أوقف جبور السيارة بمحاذاة تلة رملية صغيرة. نزل واعتلى التلة مستطلعاً. قال وهو يهبط:

- الليل ينتصف ولا أرى لأنوار «أوباري» أي أثر.. يبدو أننا ضللنا الطريق.

قال مصباح بلهجة استياء وهو يقفز من الكابينة:

- كان يجب أن نلزم الطريق الرئيسية منذ البداية.

ـ قلْ ما كان يجب أن نسكر. . هذا أصح.

ضحك جبور وهو يستلقي على الرمال الناعمة ويسحب من جيبه علبة السجائر. ولّع سيجارة وقال بهدوء:

ـ كنت أريد إختصار الطريق. . واعتمدت على خبرتي ولكن يبدو أن الصحراء لا تغفر للسكارى. . وإذا شئت ألّا نرتكب خطأ رابعاً فيجب أن نبقى هنا حتى الفجر. . ما بقي من البنزين لا يسمح للتسكع في الصحراء بلا هدف. لم نأخذ احتياطياً كافياً من البنزين. هذا خطأنا الثالث وأسوأ أخطائنا جميعاً. هيا يا عزيزي. . ستجد نفسك الليلة مضطراً لأن تحدثني عن أوروبا. . من باب قتل الليل الطويل على الأقل. .

ضحك بمرح، توقف بمجرد أن لاحظ استياء مصباح الذي انهار على الرمال الباردة وشرع يتأمل الكثبان الرملية الغارقة في السكون والظلام. قال جبور باقتضاب كأنه يطمئنه بعد أن أدرك سبب قلقه:

ـ سيكشف القمر عن وجهه قريباً. . وسترى كم تبدو الصحراء ساحرة في الليل تحت ضوء القمر. ستتمتع بسحرها وهي تتعرّى أمامك كامرأة أوروبية. ستكشف لك عن أحد أسرارها الكثيرة بعدد ذرّات الرمل.

* * *

أنصت مصباح سعيد. . أصاخ السمع بانتباه. خُيِّل له أنه سمع قرع طبول وضجيج موسيقى يخرق أذنيه، ينبعث من مكان قريب. . قريب جداً، خلف التلة الرملية. . أو فوقها. عاد ينصت بإهتمام. . الطبول تقرع بعنف أكبر. . أصداء الموسيقى تزداد صَخَباً. نغم أفريقي. . طبول أفريقية. . عنيفة. . صاخبة. . مجنونة. . حزينة.

إنفعل مصباح سعيد لدرجة أنه خاف أن يبوح لرفيقه بما يسمع.

صمم أن يشغل نفسه بشيء دفعاً للوهم. . إنطلق يردد أغنية شعبية قديمة.

* * *

بدأ القمر يتسلل بسحنته الشاحبة خلف التلة الرملية. تساءل مصباح سعيد وهو ما يزال في قبضة الإنفعال:

ـ جبور. . ألا تعتقد أن ثمة قبائل تسكن قريباً من هنا؟ الطوارق مثلاً؟

قال جبور بلا مبالاة وهو ينطرح على الرمال في استرخاء، يدخن سيجارة، يضع رجلاً على رجل، يتأمل الفضاء في صمت:

ـ الطوارق لا يسكنون في العراء. . لا تسكن هذه القفار إلاّ الذئاب والصمت وبعض الزواحف كالثعابين. . هذا في الليل. . أمّا في النهار فهناك الشمس والسراب.

ـ يا للغرابة؟ خُيِّل لي منذ قليل أنني. .

تردد أن يبوح له بالسر:

ـ سمعت قرع طبول وعزف موسيقى على آلة غريبة. . و. .

ابتسم جبور وهو يعلّق:

ـ أرأيت؟ هذا أول الأسرار. .

ـ أنت تمزح. .

قاطعه جبور بلهجة جادة:

ـ أنا لا أمزح. . هذه طبول الصحراء.

أكّد مصباح في لهجة طفل:

ـ طبول الصحراء؟ أنت تسخر.

ـ أنا لا أسخر. الصحراء كائن حي. . كالإنسان. لها روح ونفس ومسام. . تتعذّب. ترقص في الليل، تغني، تقرع الطبول، تعزف الموسيقى. . ترفّه عن نفسها. . تفعل ذلك بعد عذاب يوم قائظ عادة. أنت لا تعرف الصحراء يا مصباح. .

صمت مصباح وأضاف جبور وهو ينهض ويلتفت نحو رأس القمر الشاحب:

ـ أنت لا تعرف سر نجاح الموسيقى الأفريقية: لأنها مستمدة من أحشاء هذه الصحراء. . إنهم عرفوا أن الفرجة عليها ستدفع إلى الجنون. . فشاركوها رقصها وبهجتها فانتصروا عليها بالانتصار على خوفهم منها. فلو لزموا موقف

المتفرج لاستبدَّ بهم الرعب والجنون. . إنهم يعاملونها كما يعاملون الحياة. أعترفُ أن الرعب إستبدَّ بي عندما سمعت هذه الطبول لأول مرة. . ولكني تعودت بعد ذلك.

ـ لَمْ أَسمعْ بذلك من قبل.

ـ ولن تسمع. . أنتم أهل المدينة. تعزلون أنفسكم في مدنكم وتشكون من الحياة ومن أشياء أخرى، فكيف تريد أن تفهم الصحراء؟ قلت لك أن الصحراء امرأة يصعب اكتشافها منذ البداية، أنت تحتاج إلى معاشرتها وقتاً أطول إذا قررت أن تكتشف سرها.

نزع نعليه، دس يديه ورجليه في الرمال الباردة وقال بصوت مخنوق، حزين كمَنْ يواسي أحداً:

ـ مسكينة هذه الصحراء. . تتعذب في النهار. . تسحق الشمس عظام جسدها. . فتشكو أحزانها الأبدية. . تعزف بذرات رمالها الصغيرة ألحاناً مجنونة، تعزف. . وتعزف، تقرع الطبول حتى يدركها الصباح، لترتمي بجسدها في أحضان جلّادها، تستسلم للشمس من جديد. . . وهكذا تستمر رحلة العذاب الأبدي.

كان جبور يطأطىء رأسه نحو الأرض. . داسًّاً يديه وقدميه في أحشاء التراب الرملي البارد، حتى خُيِّل لمصباح سعيد أنه سينفجر في البكاء. ظلَّ يتأمل صامتاً. . بعد لحظات اخترق أذنيه الصوتُ، صوت دقات الطبول، وكان حزيناً. . هادراً. . مجنوناً.

* * *

نفذ البنزين ظهراً قبل أن يبلغا الطريق الرئيسية. قفز جبور من الكابينة، قال وهو ينزع غالون الماء من السيارة:

ـ أبلغنا نقطة بوليس «العوينات». سيأتون لنجدتنا، فيجب أن نبلغ الطريق الرئيسية على أقدامنا قبل أن يبدأوا في البحث.

ـ الخروج عن الطريق الرئيسية كان خطأ منذ البداية.

ـ الخطأ الحقيقي في السكرة.. أكرر ذلك، أنا أشعر بعطش منذ الآن، أَبَحْتُ لنفسي خطيئة لن تغفرها لي الصحراء.

تأبط غالون الماء، وتحركا معاً باتجاه الطريق الرئيسية.

* * *

إنتصف النهار. دَنَتِ الشمس من جسد الصحراء.. جردت لهبها، شرعت تسحق كل شيء. نفذت آخر قطرة من الماء. ولكنهما لم يبلغا الطريق الرئيسية بعد...

* * *

جلس مصباح سعيد فوق الرمل الرامض ليلتقط أنفاسه، وقف جبور يمسح العرق بأصابعه، يستطلع الخلاء الذي يمتد ليعانق الفضاء في التحام قاس.

قال مصباح وهو يحاول أن يبلل جدار فمه وشفتيه الجافتين بلسانه المتخشب:

ـ لن أذهب إلى أي مكان.. لا أستطيع.

مدَّ جبور ذراعيه يهمُّ بمساعدته، ولكنه هزَّ رأسه بإصرار علامة الرفض.

* * *

سمعه يتكلم.. ثم يجلس إلى جواره.. ثم يتكلم، يتكلم، ولا يكفُّ عن الاشارة بيديه، ولكنه، هو، لم يعد يسمع، لم يعد ينصت.. لم يعد يرى.. كل الأشياء يكتسحها الظلام.. و.. جبور يحمله على كتفيه..

يترنح.. يسقط.. يجرّه من قدميه.. و.. ذرات الرمل الناعمة تندفع في جنون لتعزف لحناً حزيناً، صاخباً...

* * *

إندفع قرص الشمس يعانق الأفق في تظاهرة صامتة من اللون الأرجواني الحزين، انطفأت شعاعات الشمس اللاهبة كأسياخ سُلِّطت على رأس البلدة طوال النهار. انقشع مع اختفائها الحرُّ فانطلقت الزواحف والحشرات من مخابئها لتتسكع بين الأحراش وأشجار النخيل، فخرج الأهالي المعتصمون في أكواخهم وانتشروا بين مزارعهم.. يديرون محركاتها، يغمرون الجداول العطشى بالماء.. يتحسَّرون على نباتاتهم الشاحبة بعد أن نزعت منها الشمسُ الخضرةَ والحياةَ.

في الفناء، أمام دار الضيافة، تجمَّع بعض الأهالي، يتطلعون في فضول عبر النوافذ، بعماماتهم الكبيرة البيضاء.

أقبلت اللاندروفر تجرُّ خلفها ذيلاً طويلاً من الغبار، فتراكض الأهالي ليختفوا بين أشجار النخيل خلف مبنى البلدية. نزل الملازم بقامته الطويلة يرتدي بدلة رسمية رمادية، تتلألأ على كتفيه نجمتان فضيتان، يمسك بيده اليمنى عصا الشرف. توقف في فناء دار الضيافة لحظات قبل أن يدخل.

جلس على كرسي خشبي وسأل بلهجة جافة:

ـ كيف تشعر الآن؟

نهض مصباح سعيد من السرير، جلس متكئاً بظهره على الجدار وقال ساهماً:

ـ الحمد لله.. إستعدت نشاطي.. ولكن الطبول ما زالت تدق في رأسي، ما هي آخر الأخبار؟

ـ طبول.. أية طبول؟

سأل الملازم في استغراب وهو يسحب من جيبه علبة التبغ ويقدِّم له

سيجارة. عاد مصباح يسأل وهو يتناول الكبريت ليولع للملازم:

ـ ما هي آخر الأخبار؟

ـ ليس هناك جديد.. تلقيت آخر مكالمة منذ قليل، لم يعثروا على شيء حتى الآن.. والسيارات ما زالت تذرع الصحراء بالطول والعرض.

ساد صمت يخرقه زعيق الجنادب وهمهمة الأهالي الذين استمروا يحومون حول دار الضيافة. اقترح مصباح سعيد:

ـ ينبغي أن ننضم إليهم.

علّق الملازم على الاقتراح في لهجة واثقة:

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات.

خفتت همهمة الأهالي في الخارج واحتدَّ زعيق الجنادب وهدير المحركات الزراعية.

إستمرت جوقة الجنادب تنسج بصرخاتها الحادة مأتماً غامضاً، اختلطت بصوت الملازم وهو يردد للمرة الثانية، بعد لحظة صمت قصيرة:

ـ أخشى أن يكون الأوان قد فات.

* * *

خرس هدير المحركات، آوى الأهالي إلى أكواخهم، فبقي الليل مسرحاً للحشرات والزواحف والصمت الذي يخرقه نحيب الجنادب المستمر. قال الملازم وهو يقتعد القرفصاء فوق بساط عجمي ـ يرتدي ثيابه المدنية ـ يحضر الشاي الصيني الأخضر فوق موقد من الجمر الخابيء:

ـ وجدوه غارقاً في البئر.. عارياً تماماً.

جرَّد الجمر من الرماد بهواء مروحة مصنوعة من سعف النخيل وأضاف بلهجة خرساء:

ـ أنت تعرف أن العطش يجعل الإنسان يتوهَّم ثقل ملابسه على بدنه..

يشعر بكل شيء ثقيلاً حتى لو كان قشة، فيتحرر من كل شيء على جسمه. يفعل ذلك عندما تدنو تلك اللحظة الوحيدة التي يتخلّص فيها الإنسان من عقدة الخجل في أن يمشي عارياً.

صمت لحظات واستطرد بذات اللهجة الجافة:

ـ العطش. العطش أنساه أن لا فائدة اطلاقاً من بلوغ البئر بلا ملابس. كان يستطيع أن يمزقها ويصنع منها «حبلاً» يدليه في البئر ليمتص القماش المبتل. ولكنه كان قد تحرر من الملابس. فواجه اختياراً قاسياً: إمّا أن يموت عطشاً فوق البئر وهو يتفرّج على الماء أو يموت غرقاً في الماء.. أقصد في البئر.

شَرَعَ يخلط الشاي وقال دون أن يحاول أن يغير من لهجته اللامبالية:

ـ أنت تتصور ماذا يعني أن يقطع الإنسان مسافة خمسين كيلومتراً ليموت وهو يتفرّج على الماء، هناك، بعيداً.. في قاع بئر. ولكنه قاوم طويلاً... حفر خندقاً صغيراً بساقيه فوق البئر ولم يلقِ بنفسه إلاّ بعد أن يئس واستولى عليه الجنون.

قدم لمصباح الشاي في فنجان صغير متوَّج برغوة كثيفة. وضع مصباح الكأس على البساط أمامه. ظل صامتاً.. لاصقاً ظهره بالجدار البارد، ينصت لنحيب الجنادب في الخارج. تابع بابهامه الرسوم التي تزين البساط العجمي ثم قال بهدوء:

ـ أتعرف يا ملازم؟.. سمعت هذه القصة التي حدثت منذ سنوات في الحمادة الحمراء أيام الجفاف والجوع. فقد التقى بدوي في الخلاء بقاطع طريق شاء أن يسلبه ناقته الوحيدة فترجّاه البدوي: قال له أنه لا يملك سواها ووعده بأن يصطحبه إلى سيد ثري من معارفه فهو يحتاج إلى راع لإبله وغنمه. وفي الطريق إلى نجع السيد الثري داس قاطع الطريق على لغم من مخلفات الحرب العالمية، وعندما شعر قاطع الطريق باللغم تحت قدميه إستيقظت في نفسه العاطفة الإنسانية فطلب من البدوي أن ينجو بنفسه. ولكن البدوي ـ وقد أذهلته إنسانية قاطع الطريق ـ أصرَّ أن يحفر حفرة عميقة تحت أقدام قاطع الطريق. وعندما انتهى من عمله طلب من رفيقه أن يسقط

إلى الوراء، في الحفرة، بمجرد أن يبتعد هو لمسافة كافية. ابتعد البدوي حتى اختفى عن بصر قاطع الطريق، فسحب قدمه وسقط في الخندق خلفه. ولكن.. ولكن شظية شقية لحقت بالبدوي وأصابته في عجيزته إصابة قاتلة. أمَّا قاطع الطريق فلم يُصَبْ بخدش... أتفهمني يا ملازم؟

- أفهمك.. أفهمك.

- الأبرياء يموتون دائماً.. ويبقى قطاع الطرق.. أتفهمني يا ملازم؟

- أفهمك.. أفهمك.. الحياة.. الحياة لا ترحم.. كالصحراء. الحياة جريمة في الصحراء. قرأت ذلك منقوشاً بالتيفيناغ على جدران جبل اكاكوس. وترجمه لي شيخ حكيم من الطوارق.

ظلَّ مصباح سعيد ملتصقاً بالجدار.. يتأمل الرغوة وهي تنقشع في فنجان الشاي. بعد لحظات انبثقت قرعات الطبول من أحشاء الصمت.. ايقاع صاخب، عنيف، مجنون، ولكنه حزين وعميق.

* * *

تتابعت الدقات.. وانطلقت أصوات بالغناء.. غناء غريب يشبه النواح.. انتظم الايقاع. سمع صرخات وآهات تمتزج بالغناء وصخب الطبول. حاول أن يطرد الضجيج من رأسه، تساءل رغماً عنه:

- ألَا تسمع قرعات الطبول؟

- طبعاً أسمع.. إنهم الطوارق يغنون.

- الطوارق؟

- الطوارق يتجمعون كل أسبوع، يوم الجمعة بعد منتصف الليل ليغنوا ويرقصوا ويدقوا الطبول حتى الصباح.. هذه عاداتهم.

ثم قال وهو ينهض وينتعل مداسه:

- ينبغي أن ترتاح.. غداً تنتظرك رحلة طويلة..

أغلق خلفه الباب. بعد قليل سمع محرك اللاندروفر يمتزج بقرعات الطبول، أنصت لحظات ثم ارتدى ملابسه وخرج.

* * *

إضطر الملازم أن يفرمل ويوقف السيارة تماماً. أزاح يده المتشبثة بذراعه دون أن تفضح ملامحه أي غضب أو إنفعال.

إشتدت العاصفة المحمَّلة بالأتربة والحصى حتى تعذَّرتِ الرؤية تماماً. حاول الملازم أن يدوس على البنزين مرة أخرى ولكنه آثر الإنتظار حتى تهدأ العاصفة فأوقف السيارة على جانب الطريق. إنتزع علبة السجائر من جيبه، قدم له سيجارة ولكنه رفض في إشمئزاز، ولَّع الملازم سيجارته وقال بهدوء عبر عاصفة الدخان الصغيرة:

ـ أنت تجهل أشياء كثيرة.. كثيرة جداً.

ـ بل أعرف أشياء كثيرة.. يكفيني أني لن أجهل بعد اليوم أن بوسع رجل القانون أن يرتكب جريمة أمام الدنيا ويظل طليقاً.

ـ هل تعتبر ذلك جريمة؟
ـ نعم. لقد كان في إمكانك إنقاذه.
ـ رجل القانون ليس مسؤولاً عن إنقاذ أحدٍ.
ـ بل أنت مسؤول.. وفوق ذلك مُكَلَّف.

ـ ها نحن نتقارب.. إسمع. إسمعني جيداً. إن الإنسان الذي يختار حياة الصحراء لا ينبغي عليه أن يعتمد على أحد. لأنه لا يخضع لسلطة أحد.. إنه يتمتع بكل حريته، حتى أنه لا يعرف ماذا يفعل بهذه الحرية غير الركض خلف الغزلان أو مطاردة السراب، وعندما يدركه العجز والعطش فعليه أن يعتمد على نفسه في إنقاذ نفسه.. عليه أن يدفع ثمن الحرية الكاملة التي يتمتع بها بفضل التحرر من السلطة.

بدأ مصباح سعيد يرتجف، إقترب من الملازم وهو يقول:
ـ لو كان جبور متحرراً من السلطة لما إعتمد عليك.
تبادلا نظرة خاطفة قبل أن يضيف الملازم:

ـ لو كان خاضعاً للسلطة لما جرؤ على أن يرفع صوته ضدي ليستقطب الأهالي البلهاء إلى جانبه.. كان يعلم أن أحداً لن يأتي لإنقاذه، فقد علَّمه

الطوارق كيف يزهد في الدنيا ويختار الصحراء، وموته كان ثمناً للدفاع عن هذه الحرية. السلطة لا تحمي أولئك الذين ترتفع أصواتهم بالمعارضة لها. فما دامت السلطة توفِّر لك الخبز وتتولاك بالرعاية والعناية والحماية فلا بدّ أن تكسر رأسك إذا حاولت أن تجهر بالعداء لها. إنها تدفع لك مقابل سكوتك. . إنها اشترت صمتك إلى الأبد. أمَّا إذا اخترت الحرية فما عليك إلَّا أن تلجأ إلى الصحراء!

قال مصباح في لهجة وعيد:

ـ مبرر وحشي أقبح من الجريمة. ولكن. . إنتظر. . سوف ترى عندما أصل العاصمة. سأفضحك في الصحف. . سأكتب تفاصيل الجريمة ولن أكفَّ حتى تُقدَّم إلى المحاكمة. .

إبتسم الملازم بمرارة وهو يعلن:

ـ لن تجني من ذلك شيئاً. . ليس لديك دليل واحد يدينني. . الجريمة الحقيقية إرتكبتها الصحراء. لم يقتله إلَّا سعيه للحرية. . الحرية هي المجرمة التي يجب أن تنادي بمحاكمتها أمَّا أنا فلم أفعل سوى أني تأخرت. . . تأخرت قليلاً. . تعمَّدت ذلك. . بضع ساعات، أو ربما نصف يوم، كانت كفيلة بحيث تتولَّى الصحراء بقية المهمة. . كان ينبغي أن أفعل ذلك. . عقاب صغير باسم السلطة التي تمرَّد عليها ورفض أن يتناول الخبز من يديها. أمَّا إعترافاتي فلا شاهد لها سواك. . وأنت تحتاج إلى طرف ثالث لإثبات جريمتي كما تسميها.

ـ ولكن هناك الأهالي. . سيشهدون إلى جانبي. . لقد حدَّثوني بحقدك وحقد حلفائك من محافظ ومتصرفين عليه، ويشعرون بالتعاطف معه، سيشهدون ضدك. أنت تحقد عليه لأنه عرف حقيقتكم وسأكشف. .

قاطعه الملازم ببرود:

ـ هذا يكفي. . معرفة الحقيقة في زماننا مبرر كاف جداً لنيل العقاب. إسمعْ. لقد كان شقيقي معارضاً أيضاً.

صمت لحظة وهو يراقب الغبار يكتسح زجاج السيارة الأمامي ثم استطرد وقد تهدَّج صوته:

- كان معارضاً عنيداً في بداية الإستقلال ما لبث السلطة أن سلَّمت بخطورته.. وفجأة.. إختفى!

أفلت من مصباح سعيد هتاف دهشة:

- إختفى؟!

قال الملازم وهو يتابع ذرات الرمل وهي تصطدم بالزجاج:

- نعم.. إختفى منذ ذلك الوقت حتى اليوم.

- أين يمكن أن يختفي؟

إستمر الملازم متجاهلاً سؤاله:

- يومها إكتشفت الحقيقة.. فكان عليَّ أن أختار.. إمَّا أن احتفظ بالحقيقة.. أو أتجاهلها إلى الأبد.

- تخون ضميرك؟

- نعم.. كنت أريد أن أعيش.. اخترت الإحتفاظ بخبزي.

علَّق مصباح سعيد ساخراً:

- قايضت الخبز بالحقيقة؟

- ولم لا؟

- وخنت ضميرك؟!

- ولم لا؟

انتصب بينهما الصمت كالجدار. بعد قليل تطلَّع الملازم إلى الخارج عبر الزجاج، التفت نحو مصباح سعيد وقال في لهجة مجردة من القسوة لأول مرة:

- أرجو أن تكون قد فهمتني.

و... أدار المفتاح وداس على البنزين.

* * *

في مقهى «مطار سبها» جلسا متقابلين بعد أن أودع مصباح أمتعته وحقائبه وجلس ينتظر الإعلان عن موعد الإقلاع. قال مصباح بعد صمت طويل:

- شكراً على كل شيء.

إستمرَّ الملازم صامتاً، يجول ببصره بين المسافرين.

* * *

أعلن مكبر الصوت للركاب عن وجوب التوجه إلى الطائرة. نهض مصباح، ولكن الملازم سبقه. همَّ بالإنصراف فوجد يد الملازم منصوبة أمامه كمسدس. صافحة مصباح سعيد وهما يتبادلان نظرة سريعة.

وقبل أن يغيب في زحام المسافرين لحق به الملازم. قال في صوت هامس كفحيح الأفعى:

- لا تعتمد كثيراً على الأهالي.

ثم شيَّعه بابتسامة غامضة.

* * *

في الطائرة إختار مقعداً بجوار النافذة. رأى الملازم ما يزال واقفاً بين جمهرة المودعين، والإبتسامة الغامضة ما زالت مرسومة على شفتيه.

بعد قليل كانت الطائرة تحلِّق عبر الهواء، فوق الرمال الصفراء. حاول أن ينسى كل شيء.. كل شيء... ولكن قرع الطبول ما لبث أن ضجَّ في أذنيه ليعلو على هدير محركات الكارافيل السابحة في الفضاء.

موسكو

مايو ١٩٧٥

إلى أين أيها البَدوي؟

إلى أين؟

اليوم قرر البدوي أن يهجر الصحراء إلى الأبد ويلجأ إلى المدينة.. أمر غريب أن يفعل البدوي ذلك! ولكن.. (ثمة دائماً «لكن» اللعينة هذه) ولكن كان لا بدَّ أن يفعل ذلك.. عاش وحيداً في الصحراء طوال نصف قرن متنقلاً من واد إلى واد، من سدرةٍ إلى سدرة، من خلاءٍ إلى خلاء، ومن سرابٍ إلى سراب يرعى الغنم لقاء معزة في العام.. يأكل الكمأة أو يقتات الأعشاب البرية أو يعجن الدقيق ويدفنه في الرمل إذا حدث ونال رضى زوجة صاحب القطيع، و.. ويغني.. كان هذا الراعي البدوي يعشق الغناء.. ربما لأنه لم يذق حكم الفرنسيين أو الطليان.. ربما لأنه لم يسمع بغراسياني ولا بهتلر.. أو ربما يغني لأنه.. سعيد.

مَنْ منا لا يغني عندما يكون سعيداً؟!

ولكن الصحراء خليفة الله في الأرض تنفذ تعاليمه وحكمه بحذافير قاسية.. هذه الصحراء التي تجود بالمطر وتجعل شجر البطوم يزهر، وتتقيأ الغزلان والأرانب والبقر الوحشي تستطيع أن تزفر صهداً أو تعصف ريحاً أو تُصْلي ناراً موقدة لا مهربَ منها. وأسوأ ما تستطيع أن تفعله الصحراء هو أنْ تبخل بالماء.. أنْ تشحَّ بالماء!

هذا ما يخشاه البدوي دائماً. فهو يستطيع أن يواجه الصهد، ويكتوي بالنار الموقدة.. ويقاوم رياح القبلي العاتية - ولكن يصيبه العجز ويركع طالباً المغفرة من الله عندما تعاقبه الصحراء بالعطش وتبخل عليه بالماء.

في السابق لم تكن الصحراء تبخل بالماء لسنوات طويلة، فإنْ لم تمطر هذا العام فإن الرحمة آتية في العام الذي يليه ونادراً ما يستمر الجفاف طوال عامين متتاليين.

لكن الصحراء في الأعوام الخمسة الأخيرة تمادت في الجفاف فهجرها الجميع بعد أن إستبدَّ بهم اليأس.. وأيقنوا بـلا جدوى إنتظار الرحمة!

فماذا بقي للبدوي في الصحراء؟ أمضى عمره وحيداً... لا أهل... لا زوجة... ولا صغار... والصحراء مهجورة من أهلها ودوابها... لم يبق فيها سوى السراب يتلألأ ويتراقص.

توقف البدوي عن الغناء وقرر أن يلجأ إلى المدينة.

دخل المدينة يهشُّ جملاً وناقة هما كل ثروته!

سأل المارة كيف يمكنه أن يتخلَّص منهما فدلّوه على السوق. باعهما بثلاثين جنيهاً فتسلل خارج سور السوق دون أن يلقي عليهما نظرة أخيرة. واضح أنهم ضحكوا عليه - لو يعرف ذلك... ولكنه لم يقدر أن يساوم أكثر رغم حاجته للقرش الأبيض وعلمه بحيل أهل المدن.

كان قد انتابه شعور غريب إذْ شعر أنه يفارق الصحراء إلى الأبد ويقطع آخر شعرة تربطه بها و... وبالغناء.

... وحتى أن قلبه الذي لم تعلمه الصحراء سوى القسوة والخشونة بدأ ينقبض ويخفق بشدة. خرج ولم يلتفت... غالب أشياء كثيرة حتى أنه أطلق شهقة غريبة قبل أن يدلَّه أحد المارة على فندق قديم بالقرب من المدينة القديمة.

مسكين البدوي.. لم يكن يعرف أن وحشته هي مرض أهل المدن الكبيرة. وأسوأ من ذلك لم يكن ليعلم أن كابوس ما يسميه أهل المدن باطل الأباطيل... قد بدأ يهاجمه وهو في أول الطريق!

قضى ليلتين في الفندق المليء بالعفونة والرطوبة - بلا نوم. بدأ يعرف الأرق لأول مرة. وفي اليوم الثالث خرج للسوق واشترى جرداً رمادياً جديداً.

في اليوم الرابع بحث عن عمل.. وبعدها بثلاثة أيام وعده مقاول بالعمل كمباشر في شركته الناشئة. ولكن البدوي بدأ يحنُّ إلى الغناء.. بحث عن صوته فلم يجده.. بحث عن حنجرته فلم تسعفه.. بحث عن تلك الكلمات.. الكلمات البسيطة.. البريئة.. الهادئة.. الحزينة فاكتشف أنها تختنق في صدره.. إلى أن جاء ذلك اليوم..

.. في ذلك اليوم، في منتصف النهار، طاف البدوي شوارع المدينة حتى شعر بالتعب فجلس على أحد الأرصفة مسنداً ظهره إلى الجدار.

لم تمر لحظات حتى أغمض عينيه. أيقظته حركة غريبة في الشارع.. ضجيج.. صراخ ثم همس - همس مريب بين المارة - التجار والبقالون يسارعون إلى إغلاق متاجرهم وحوانيتهم.. الباعة الجوالون يتصايحون ويجرّون عرباتهم هنا وهناك.. المارة يتقافزون ثم يصطفون في طوابير طويلة على جانبي الرصيف وعلى وجوههم جميعاً تعبير واحد، هل هو إمتنان؟ هل هو خشوع؟ هل هو خوف؟ نعم الخوف.. إنه الخوف.

إقترب منه أحد المارة ولكزه بقدمه وهمس بخوف.. نفس الخوف:

- قمْ.. إنهضْ.. كيف تجرؤ.. الملك - الملك قادم - موكب الملك. هيا..

وانطلق إلى حيث يصطف المارة - ولكن هل تحرك البدوي؟ هل فهم البدوي!

إنه لم يتحرك لأنه لم يفهم. هو لا ينكر أنه سمع بالملك ولكن الصحراء لم تخبره ما معنى الملك.. لم تخبره بوظيفة الملك ولهذا لم يتحرك حتى

عندما جاءه ثان وثالث ورابع وعاشر يحثونه على النهوض، بل ويأمرونه بالركوع ثم يختفون في زحام المصطفين المنتظرين. منهم مَنْ يمضي وهو يرثي لحاله.. ومنهم مَنْ يختفي وفي عينيه وعيد مكتوم.. ومنهم مَنْ يركض في إشمئزاز معتقداً أنه مجنون.

ولكن البدوي كان يفكر في مشكلة أخرى.. كان يحلم بالسدر والبطوم والغزلان وسراب القيلولة و.. الغناء.

وكلما تذكَّر الغناء والخلاء الأبدي قال في نفسه.. «خمسون عاماً يكفي. خمسون عاماً من الركض خلف الغزلان ومصارعة الصهد والسراب يكفي تماماً.»

من حق البدوي أن يفكِّر بأن حياة خمسين عاماً تكفي. لأنه.. لأنه لم يذق حكم الفرنسيين ولا الطليان ووالده لم يحدثه عن سلطان والي الاستانة في طرابلس..

هو لم يعرف غراسياني. ولم يسمع بهتلر!

. بدأ الشارع يتزاحم.. تحول إلى كتل من البشر تتدافع بمناكبها.. تدوس بعضها.. تتشاجر و.. وتتطلع إلى اسفلت الطريق في انتظار الموكب.. ثم.. ثم تعالى الصراخ والزعيق والهتاف.. سمع البدوي كلمات لم يفهمها (.. عاش.. يعيش.. يحيا الملك ـ حفظه الله ورعاه، مولانا سيد نعمتنا ـ الملك ـ الملك).

الموكب ـ يلوِّح المتجمهرون يتسابقون على الطاعة.

مرَّ الموكب.

لم يتحرَّك البدوي.. لم يستغرب ـ لم يفهم ـ كان يفكِّر فقط في جمل وناقة تخلَّص منهما وإختفى خجلاً وعجزاً في دفع المكتوب.. يتذكَّر غزالة رقيقة اصطادها بيديه محاولاً أن يربيها فهربت بعد أسبوع.. يفكر في ربيع صحراوي وأعشاب برية.. يذوب في سراب فضي يتدفق في الخلاء

ويندفع إلى الأبد.. يستغرق في أغنية حزينة تبدد سكون الصحراء ووحشة الحياة.. و..

ووقف فوق رأسه شخصان. أحدهما على يمينه والآخر على يساره.. أحدهما طويل القامة، عريض المنكبين أسمر.. صارم الملامح، والآخر.. قصير.. مكتنز الجسم.. متجهم أيضاً، له أسنان صفراء كريهة.. ينتعل حذاء أسود وضخماً. يرتدي بذلة رمادية.. إقترب منه وركله بحذائه الأسود الضخم ركلة قاسية وتمتم مكشراً عن أسنانه الصفراء:

- إنهضْ..

لم يتحرك البدوي، لأنه لم يفهم، ولكن هل من الضروري أن يفهم؟ هل يستدعي الأمر أن يفهم؟..

- هيًا.. إنهضْ يا كلب..

تمتم الرجل طويل القامة بغلٍ وهو يتقدم خطوة ويدوس على أصابع قدم البدوي بوحشية.

أفلتت صرخة أليمة من صدر البدوي.. ولكنهم لم يهبوه فرصة للفهم، جرجروه وألقوا به في سيارة كانت تقف في الزقاق المجاور..

في المكتب جلس طويل القامة في مواجهته، في حين جلس قصير القامة إلى جواره. سأله طويل القامة:

- اسمك؟

بصق البدوي الدم، وتحسس الكدمات على وجهه قبل أن يجيب..

- عبد الله..
- كلنا عبيد الله.
- أعرف.. ولكن اسمي عبد الله.. عبد الله القاضي.
- من أية قبيلة؟
- لا أنتمي إلى قبيلة.

حَدَجَهُ الرجل طويل القامة بنظرة شك قبل ان يدوِّن جوابه في الأوراق.

- العنوان؟

- الصحراء..

- الصحراء؟

- الصحراء. ليس لديَّ عنوان آخر.

حدجه بنظرة شك أخرى قبل أن يدوِّن جوابه:

- كيف جرؤت على الإستهتار بمولانا؟

- مولانا!؟

- نعم.. نعم.. مولاك يا ابن الكلب، وَليُّ نعمتك - الملك.

- الملك؟

- ما زلت تتغابى.. تتظاهر بأنك لا تفهم.. حسناً، سوف نجعلك تجيب كما ينبغي أيها المخرِّب.. هيا..

غمز بعينه لزميله. تقدَّم رجل آخر.. جرجروه إلى غرفة مظلمة بالداخل..

عادوا به بعد ساعة.

وعاد الرجل طويل القامة يسأل:

- الآن عرفت مَنْ هو الملك؟ لماذا تجرأت وسمحت لنفسك بالإستلقاء على الرصيف وموكبه يمر أمامك دون أن تتحرك؟ لقد نبَّهك المارة بوصول الموكب، فلا تدعي أنك لا تعرف. لقد رأينا ذلك بأعيننا.. هه هيا..

- والله كنت تعبان.. تعبان والله - الصحراء.. الصحراء طردتنا، الصحراء بخلت علينا بالمطر. فلجأنا إلى المدينة.. بعت ناقتي وجملي.. أنا لا أملك شيئاً.. أنا تعبان.. تعبان من الصحراء والدنيا والناس، ولم أكن أعرف..

لم يكن يعرف حقاً.. ولكنه بدأ يعرف.. بدأ يفهم..

ما أشقاك أيها البدوي.

أوقفوه ليلتين ثم أطلقوا سراحه. عاد إلى الفندق الرطب القديم محطَّماً. دفع أجر الفندق. غسل بقع الدم على وجهه وأطرافه، تناول مخلاته وخرج. خطر له أن يشتري بعض الدقيق ولكنه تراجع.

تراءت له روابي الصحراء القاحلة.. الشاحبة - القاسية والشجيرات البرية الجرداء العطشى.. والبحار.. بحار السراب الراقصة الساخرة.. والصهد.. الصهد المتدفق مع رياح القبلي.. و.. الجفاف. خرج من المدينة وهو يفكر في الصحراء، حالماً بالغناء نادماً على بيع جمله وناقته حتى لفحته أول نسمة صهد قبلية.

تنفس بعمق وهو يخرج من جيبه ورقة عشرة جنيهات باقية.. تأملها بفضول قبل أن يمزقها قطعاً صغيرة ألقى بها في مواجهة نسمة القبلي.. فتناثرت متبددة.. لم يكن يعلم طبعاً أنه قد مزَّق رأس الملك..

كان يعلم فقط أنه يغادر المدينة إلى الأبد.. إلى الصحراء إلى السراب.

خرج البدوي من المدينة بعد ظهر ذلك اليوم.. ولكن هل ما زال البدوي قادراً أن يغني مرة أخرى؟!

جرعَة مِن دَم

﴿وَجَعلنا مِنَ الماء كلَّ شيء حَي﴾
آية قرآنية . .

لم يعد وانس الصغير يحتمل العطش فأخبر أختـه تانس كيف نسي أحجبتـه حيث كـان يرعى قطيع الغزلان، فبكت تانس ورجته ألاّ يشرب من بول الغزال، ولكن وانس لم يعد يحتمل فذهب واختطف أحجبته، وشـرب من بول الغزال بعد أن ألقمه حجراً فعاد إلى أختـه تانس وقـد تحوَّل نصفـه الأعلى إلى غـزال وأحجبتـه معلقـة على قـرنيـه.

«من اسطورة للطوارق».

«الناس والبحر»

إنكفأت الشمس في مظاهرة من اللون الارجواني لفظ معها النهار أنفاسه الأخيرة. هبَّت نسمة هواء شمالية حبلى بالماء والحياة لأول مرة بعد ثلاثة أيام من القيظ ورياح القبلي ملأ بها صدره فتسللت لتغمر روحه وجسمه بالإنتعاش والنشاط. لا شك أنها نسمة قادمة من جنة الله . . من البحار البعيدة، هناك . . حيث يعيش بشر مسحورون في مدن كبيرة. . أخيراً زار رجل المدينة ورأى أن

ماء البحر أزرق كألبسة الطوارق المستوردة من كانو.. وحجمه.. حجمه كبير.. كبير.... كالصحراء. ما أسعد حظ هؤلاء الناس. وهبهم الله ماءً وفيراً ووضعه تحت أقدامهم، فماذا ينقصهم؟ ولكن الرجل أخبره أنهم أشقياء وشريرون برغم البحر: يسرقون ويتشاجرون ويقتل بعضهم بعضاً. كيف يجرؤ هؤلاء البشر أن يركلوا نعمة الله بأقدامهم ليشقوا ويسفحوا دم بعضهم ويعيثوا في الأرض فساداً برغم الماء الوفير الذي ينساب تحت أقدامهم فأي إنسان يجرؤ أن يهين النعمة ويكفر بالماء لو لم يكن شيطاناً رجيماً.؟

«الأفعى تقتفي أثر قاتلها»

شرع الظلام يهجم وانهزم النهار. ترجّل عن الجمل وقاده عبر الأعشاب البرية اليابسة باحثاً عن مكان مناسب يقضي فيه ليلته. عند شجرة سدر كبيرة أناخ الجمل. نزع عنه السرج والبندقية والمؤن وقربة الماء وبقية الأثقال. ذهب يبحث عن حطب بعد أن أحكم العقال حول ركبة الجمل.

شرع ينزع أغصان شجرة برية كبيرة ماتت بعد أن نزع منها الجفافُ الروحَ والحياة لتقوم الشمس ببقية المهمة. همَّ بأن يجمع أعواد الحطب المتناثرة عندما سمع ذلك الفحيح الكريه الذي يقشعر له البدن دائماً ويشعره بالتقزز ويبعث في نفسه الجنون والعدوان. رآها مكومة عند جذع الشجرة قرب عشٍ من أعشاش الطيور البرية مهددة بلسانها. تذكّر أنه نسي البندقية فهجم عليها بعصاته في جنون ناتج عن غريزة الدفاع عن النفس. مظهرها الكريه لا يدع فرصة للتفكير أبداً. كان حزامها منتفخاً. إكتشف أنها إبتلعت الطائر.. فلم يبق في العش سوى ثلاث بيضات صغيرة. أتى بحجرين كبيرين.. نزع رأسها عن جلدها.. حفر حفرة صغيرة بعصاته ودفن الرأس. كان لا بدّ له أن يفعل ذلك.. فإذا قتلت أفعى وأهملت أن تنزع رأسها جاءتها بقية الأفاعي بعد أن تمضي مباشرة لتعيد لها الحياة وتمضي تقتفي أثرك حتى تقتلك أينما كنت.. هكذا يقول الطوارق وهو لم يؤمن في حياته بشيء كما آمن بقدرة الأفعى على المطاردة والإنتقام من قاتلها إنْ لم يجتثْ رأسها عن

جلدها. ربما لأن خوفه من الأفاعي أقوى من كل شيء.. من طغيان الأشباح والصحراء وكل الأعداء.

«شباب الله وماؤه»

أشعل النار في الحطب، وتناول الدقيق من جرابه الجلدي.. صبَّ ماء من القربة في الإناء.. بدأ يعجن الدقيق في انتظار أن تخبو النار. الماء تضاءل كثيراً في القربة. يومان خائبان في الخلاء.. والأولاد لم يذوقوا طعم اللحم منذ ثلاثة أشهر.. المعيز التهمها الجفاف وما تبقى غث جائع تتأفف الذئاب من لحمه.. يومان لم يقابل فيهما سوى غزالة واحدة فشل في إصابتها. أين تلك الأيام التي كانت يصيب فيها الغزال من الطلقة الأولى؟ أين تلك الأيام التي راهن فيها على إصابة غزال يركض في عينة وهو يمتطي ظهر المهري؟ تلك أيام الشباب.. يد الشباب الثابتة كالحديد تصيب غزالة طائرة في الهواء وتظل ثابتة حتى وهو يمتطي ظهر مهري تعدو.. الرصاصة تمضي إلى هدفها دائماً. أمَّا يد الشيخوخة هذه.. فترتجف بلا سبب.. ترتجف وهو راقد على الأرض المنبسطة، راكن إلى قمة ربوة.. وقطعان الغزلان ترتع أمامه في هدوء، ومع ذلك يخطىء الهدف.

الشباب.. الشباب كالماء نعمة من الله يهبها لِمَنْ يشاء، ثمّ ما يلبث أن ينتزعها متى شاء.

«الخبز والملح»

أزاح الجمر جانباً، وألقى بالعجين في الرمل الملتهب. أهال عليه التراب وعاد يغطيه بالجمر مرة أخرى. صبَّ الماء في إناء الشاي ووضعه فوق الجمر. ينبغي الاقتصاد في الماء وإذا لم يرسل الله غداً نسيماً بحرياً وسحباً شمالية تلطِّف من لهب الشمس وتنعش النهار فإن هذه القطرة لن تصمد ضد رياح القبلي يوماً آخر. انتشل الخبز من الأرض.

دفنه في التربة الرملية وشرع ينظفه من الرماد والجمرات الصغيرة

العالقة به. نفض عنه الغبار وهمَّ بأن يغسله بالماء كالعادة، ولكنه استدرك. تناول السكين من الجراب وشقَّ الرغيف نصفين. بدأ يلتهم النصف الثاني، نسي الملح.. لا يهمُّ.. الأرض قامت بالمهمة.. مَلَّحته الأرض من تلقاء نفسها.. ملح الأرض ألذُّ طعماً. يا الله! ما أطيب ملح الأرض.. ما ألذَّ الخبز عندما يُدفَن في أحشاء الرمل اللاهب.. ما أطعم الخبز الناضج في أعماق أُمِّنا الأرض.. الخبز المسحور الذي يعبق برائحة الجنة، هذا الخبز الإلهي الذي يشبه طعمه رائحة تلك النسمة العبقة القادمة من الشمال.. من البحر الكبير كالصحراء.

«الفكرة الحكيمة»

أكل الخبز وشرب الشاي وتوضّأ بالتيمم ويمم شطر القبلة ليجمع صلوات أوقات اليوم الخمسة في وقت واحد. تهيأ للنوم عندما تذكر «الأشقر».. نسيه.. نسي أن يداعبه قبل النوم حسب العادة. إقترب منه. توقف عن الاجترار. وشرع يلعق يديه بشفتيه بحثاً عن أعشاب أو قبضة شعير، وعندما أدرك أنه أتاه بيدين فارغتين حكَّ رأسه بقامته ثم مدَّ رقبته وعاد يجترُّ في صبرٍ مسلِّماً أمره لله. هذا جمل ليس ككل الجمال. مهري نادر الوجود في الصحراء الكبرى كلها وربما في الدنيا كلها. يتمتع بروح مَرِنة ويفهم معنى الصداقة.. رباه بيديه منذ كان صغيراً ليبذر في نفسه العاطفة الإنسانية وينزع الخبث من رأسه بعد أن أرته الجمال التي يشتريها من الغرباء نجوم الليل في عزِّ الظهر. أحد هذه الجمال ابتاعه من بدوي ينتمي إلى قبيلة الامغاد فورث عن صاحبه الخيانة والخبث وكل الرذائل التي تتمتع بها هذه القبيلة الشقية. فقد حاول أن يبرك عليه ويسحقه عندما كان نائماً في إحدى رحلاته. أمَّا الثاني فقد قايضه بخمسة رؤوس من الغنم من مواطن تشادي يتاجر بالعطور المحلية الكريهة الرائحة. ويبدو أن هذا التاجر أوصى جمله أيضاً بممارسة بعض الطقوس السحرية التي تعوَّد أمثال هؤلاء التجار أن يرتزقوا منها عندما يتغرَّبون عن بلادهم.

في البداية حاول أن ينتحل الأعذار لخرافته وحماقاته ونزواته وأرجعها إلى غباء موروث في دمه.. ولكنه ما لبث أن كشف عن معدنه اللئيم. فقد انتهز هذا الحيوان الكريه فرصة انشغاله بالمحراث عندما كان يحرث الأرض بعد نزول أمطار موسمية غزيرة في وادي الجعيفري فالتهم يده اليمنى وشرع يمضغها.. إنهال عليه باللكمات بكفه اليسرى بلا جدوى، فماذا تستطيع اليد اليسرى أن تفعل إذا كانت توأمتها اليمنى تحت رحمة فكّي جمل هائج كذاك الجمل. أنقذه رجل كان يحرث الأرض بجواره بعد أن حطم فكّي الحيوان المسعور بكعب البندقية. آمن يومها وما زال يؤمن أن ذلك الجمل كان ثمرة مؤامرة دبرها أعداؤه ضد يده اليمنى التي اكتسبت سمعة وشعبية في الرماية أثناء الحروب الأخيرة مع الطليان والقبائل المعادية.

وقد أكدَّ هذا الاعتقاد فقيهٌ من غدامس.. زاره مرة لعيادته بعد هذا الحادث.. وقد قرأ الفقيه على رأسه بعض الآيات القرآنية والتعاويذ ودسّ حجاباً جديداً بين أحجبته بعد أن أغرقه في حمام من البخور، ولم يطلق سراحه بالطبع إلاّ بعد أن انتزع من جيبه عشرة فرنكات فرنسية. ولكنه عرف كيف ينتقم لنفسه من هذا الجمل المسحور الذي دسّه له أعداؤه كما أكّد له ذلك الفقيه الساحر.. فقد حاصره العطش ذات مرة في الخلاء فتذكّر تلك الفكرة الحكيمة التي وجدت منذ وجود الطوارق والصحراء على الأرض: ذبحه وارتوى من دمه. أمّا يده فقد برئت، وعاد فدرَّبها على فنِّ التصويب والرماية، ولم يقتنع بشفائه إلاّ بعد أن أصاب غزالة طائرة في الهواء وهو يمتطي ظهر مهري يعدو. جمل واحد اختص له قبل «الاشقر» ولكنه التهم دودا مع الأعشاب فانتفخت بطنه وبعد أن هاجمته سكرات الموت ذبحه ورفض أن يأكل لحمه. أمّا «الاشقر» فقد صنعه بيده المعروقة المرتجفة هذه... حمله على ظهره وعبر به الصحراء طولاً وعرضاً دون أن يشكو أو يتبرم برغم الجوع والعطش ولهب الشمس. قضى معه من الوقت أكثر مما قضاه مع زوجته وأولاده. يفهمه أكثر من امرأته.. وربما يحبه أكثر من إمرأته فكيف لا يعشق المرء حيواناً وديعاً ومطيعاً كـ «الاشقر» بعد هذا العمر الطويل من العشرة والملح.

الاثم هو أن تطالب بالجنة

حمل «الأشقر» أثقاله.. وثبَّت على ظهره السرج. داعب رقبته بحنان وهو يعده بالحشائش الخضراء في وادي «عوينة ونين» قبل أن يقفز على السرج بوثبه واحدة. انطلق به قبل الشروق وعندما انتصف النهار بلغ وادي «عوينة ونين» (كانت الشمس تتدفق كاللهب). أبصر قطيعاً من الغزلان ترتع في بطن الوادي.. شدَّ رسن «الأشقر» وقفز إلى الأرض بهدوء، نزع الزمام حول رقبة المهري وتركه يهجم على الأعشاب البرية الخضراء. انطلق نحو الوادي متنقلاً من شجرة رتم إلى أخرى حتى أطلَّ على القطيع: سبحان الله ما أجمل الغزال.. عينان صغيرتان كحلاوان، قوائم رفيعة أنيقة.. سحنة ساحرة. لم يخلق الله جسماً كالغزال في تناسق لا تراه إلاّ وتشعر برغبة في أن تحتضنه وتقبله وتملأ عينيك من رؤيته وتطلق سراحه. كَمْ هو جميل أن يرى المرء غزالاً أمامه.. ولكن الأجمل لو يطمئن الغزال للإنسان. الغزال.. جسَّد الله في خلقه أجمل صورة للجمال البري البريء.. فكيف عجز في شبابه عن اكتشاف هذا الجمال الخارق الذي يمثله هذا الحيوان الصغير؟ كيف سوّلت له نفسه أن يطلق النار ويسفح دم البراءة.. دم الَجمال؟ كيف استطاع أن يقترف هذه الخطيئة في شبابه، عندما كان يعود إلى البيت وجمله ينوء بحمل الغزلان المقتولة بيده؟ أمْ أن الله يفعل ذلك كي يعاقب الإنسان عن كل خطاياه دفعة واحدة، بأن يجعله يكتشف الحقيقة مرة واحدة في حياته، ولكن بعد أن يكون الأوان قد فات.

في شبابه كان طائشاً معطل العقل، وقادراً على صيد الغزلان وامتلاكها حتى وهي حية، ولكن.. عقله لم يكن يسمح له بادراك حقيقة الَجمال الكامنة في هذا الحيوان الوديع.. والآن بعد أن غزته الشيخوخة وامتلك عقله يعاقبه الله باكتشاف الجمال في الغزال، دون أن يكون قادراً على الاستيلاء عليه. فكيف يستطيع أن يطلق عليه النار حتى لو لم يكن عاجزاً؟ كيف؟ كيف ولكن.. الأولاد.. الأولاد يبكون عندما يستولي عليهم الجوع.. فكيف يطيق الأب أن يرى أطفاله يبكون من شدة الجوع، دون أن يفقد عقله ويسبح ضد إرادته:

تشبّث بظهر ربوة صغيرة تـطلّ على الوادي . . سدد فوهـة البندقيـة على غزالـة متـوجة بقـرنين طويلين، عـاوده العذاب وغـزاه التشاؤم للحـظة . . ورغم ذلـك ضغط على الزناد . . تبدد القطيع في سرعـة السهم خلال لحـظة واحدة. هـرع إلى الوادي وأعماقه تردد: «كلنا خاطئـون. ليس بين الناس أبـرياء، فمَنْ الـذي يحق له أن يطمع في الجنة؟ أنْ يطالب الإنسان بالجنة فهذا هو الإثم».

لعنة الغزال

اكتشف آثار دماء مسفوحة على الأعشاب حيث كان يـرعى القطيع. تدفق العرق فوق جبينه وغمر وجهه وفمه . . سقطت قطرات منه على الأرض وامتزجت بدم الغزال الجريح. تذكّر أنه نسى أن يبسمل عندما أطلق النار: آه . . هذا نذيـر شؤم . . الغزلان أيضـاً مسحورة . . إذا أطلقت النـار عليها فيجب أن تتأكد من إصابتها اصابة قاتلة، فتقتل شياطينها معها . . وإلاًّ فإن لعنتها قادرة على أن تلحق بك الأذى، خاصة إذا حدث ونسيت أن تذكر اسم الله عند الضغط على الزناد. عرف رجلا جرح غزالة حامل فركبته شياطينها وفقد عقله . . وبعد ثلاثة أيام مات. وحدَّثه رجل من أوراغن، كيف ظلَّ يطلق النار على غزالة مسكونة منذ الصباح حتى انتصف النهار، كـانت تقفز في الهواء مع كل طلقة وتعود إلى الأرض لترتع بهدوء، دون أن تعبـأ بعياراتـه النارية حتى نفد رصاصه في نهاية الأمر وتأكد أن الشيطان يسكنها.

أطلق عنان الأشقر في أثر الغزال الجريح مهتدياً ببقع الدم المسفوح حتى هجم الظلام. بات ليلته بلا عشـاء إقتصاداً في المـاء، واستيقظ عند الفجر وواصل رحلته في أثرها. لم يبق من الماء في القربة ما يكفي لنصف يوم، ولكنه مضى يطاردها في عناد حتى أدركها راقدة عند سفح الجبل بعد أن تخلَّى عنها القطيع ونزفت كل دمائها. ذبحها وسلخهـا وتعشى على رأسها وأحشائها. في تلك الليلة نَفَذَتْ آخر قطرة من الماء.

جرعة الدم

لم يكن في وسعه أن يختصر مسافة أربعة أيام ونصف في يومين، دون

أن يقتل «الأشقر» عَدْوَاً. قاد المهري ومشى على قدميه طوال الليل ليدع له فرصة الخلود للراحة استعداداً لمواجهة مسيرة نهار مهـدد بجحيم الحرّ في اليوم التالي. امتصَّ جلد القربة بعد أن مزقه بيديه. وفي نهار اليوم الثالث عجز عن الجلوس فوق السرج.

ترجَّل وجلس يستظلُّ بـ «الأشقر» من الحر المتدفق في الخلاء المغطى بالحصى العاري حتى من الصخور. تأمل الصحراء المنبسطة أمامه كراحة اليد. وفي النهاية.. هناك كان السراب يتراقص فتذكَّر البحر.

كان كل شيء ساكناً، هادئاً مستسلماً لسلطة الشمس القاسية. حتى الذباب لم يعد يطنُّ حول الغزالة المعلقة على طرف السرج. شفتاه تزدادان جفافاً.. حلقه يابس بعد أن فقد القدرة على استحلاب اللعاب.. قلبه تكوَّر وتخشَّب. وفي هـذه اللحظـة لمعت في رأسه فكرة.. الفكرة الحكيمة، ولكنه ارتجف رعباً: «الأشقر».. لم يبق له إلاّ أن يذبح الأشقر ويتجرَّع دمه. أناخه وأحكم العقال حول قائمتيه الأماميتين. فعل ذلك بحماس أذهله. إنها العاطفة الجنونية التي تدمر العقل مرة واحدة في سبيل فكرة الحياة.. التشبث بالحياة. ولكن جرعة واحدة. .واحدة فحسب، لن يضطر لأكثر من ذلـك. ربَّت على رقبة المهري يداعبه... فتحسسه «الأشقر» بشفتيه وقبَّل يديه كأنه يبارك فعله ثم رفع رقبته نحو الأفق البعيد حيث يتراقص السراب في كبرياء واستسلم لمصيره إلى الأبد، في هذه اللحظة اضطرب الشيخ وانهـار على الأرض الرمضاء.

السكيـن

حاول أن ينهض.. لكنه عاد فسقط عند ركبتي «الأشقر». غرس يديه في الأرض. لسعته الرمضاء فانتزعها، أجال ببصره حوله، لم يعد ير شيئاً.. لم يعد قادراً على رؤية الخلاء الممتد إلى ما لا نهاية.. عَجِزَ حتى عن رؤية السراب. كل شيء يتراقص.. يتراقص.. يتـراقص.. ويختفي في ظلام عينيه. عاد يحلم بجرعة الدم.. قدح صغير من الدم يبلُّ به ريقه ويعيد له الحياة.. الحياة.. الحياة. نهض مستنداً على «الأشقر» حتى بلغ رقبته.. ثم

رأسه احتضنه طويلاً . . إستسلم «الأشقر» بين ذراعيه، شمشمه بخياشيمه . . يستحثُّه على الاسراع . . لم يَعدْ يطيق الانتظار . . كان شاهراً رقبته الطويلة منتظراً أن يدسَّ فيه السكين . قرر أن ينتشل السكين . . دسَّ يده في الجراب ، فلم يجدها . . فتش عنها بين أحجبته بين ثنايا البطانية . . في كـل مكان ، اختفت . . ضاعت . . نساها . . حيث سلخ الغزال . الغزال . . الغزال .

رحلة اللاشيء

هذه خطيئتي . . كنت أستطيع أن أتمتع برؤيته وأعود . كان في امكاني ألَّا أطلق النار . . أو أبسمل باسم الله على الأقل . . ولكن ، هل خطيئتي أيضاً أن يبكي الأطفال عندما يجوعون؟ هل خطيئتي أن الله خلق مخلوقاً جميلاً وزرع فيه روح الجن والشياطين؟ حقاً إن الله لا يخلق شيئاً بلا سبب .

مدَّ يده وحلَّ وثاق «الأشقر» وفي أعماقه صدى ضجيج يتردد : هل أنت أول جثة إبتلعتها الصحراء؟ هل أنت آخر جثة ستبتلعها الصحراء؟ الآن لم يعد يخشى الشمس . . والعطش . . أو الصحراء . . أو أي شيء . . آخر شيء استطاع أن يراه قامة «الأشقـر» الفارهـة وهو ينهض . . ثم وهـو واقف فوق رأسه ، يتحسس جبينه ويشمشم ملابسه بخياشيمه . . يبرك إلى جانبه ليحجب الشمس القاسية عن جسمه . . حبات الرمل في فمه لم يعد لها طعم ، أو أن طعمها لا يذكِّره بشيء :ومتى كان ثمة طعم لشيء ، أي شيء؟ لم يفكر بعدها بشيء . . لم ير شيئاً . . تلاشى كل شيء في لا شيء . . لتبدأ رحلة جديدة مجهولة من التلاشي و . . اللاشيء .

بابا جاء.. بابا جاء

بعد يومين رأى الأولاد جَمَلاً قادماً يصارع الأفق . . تراكضوا نحوه وهم يتصايحون كالعادة : «بابا جاء ، بابا جاء» . تحلقوا حول «الأشقر» الذي مضى في طريقه كأنه لا يعبأ بهم . لا يعبأ بشيء . . ولا يرى شيئاً سوى الأفق . . يجرجر زمامه خلفه والغزال معلق على السرج . . ولكن السرج نفسه كان . . خالياً .

الشظيـــة

(١)

قبل أن ينقلب ميزان النهار، ويبدأ قرص الشمس الملتهب في الانكفاء نحو الغروب كان الشيخ القادم من بعيد يصارع الأفق فيبدو كذبابة. . نقطة سوداء تافهة في الخلاء المنبسط إلى الأبد. في البداية خاله صخرة أو شجرة برية. ولكن الشّبح شرع يتضخم ويكبر ويقترب حتى أيقن أنه رجل يتشح بالسواد.

جمع الحطب في حزمتين كبيرتين. أنـاخ ناقتـه وحمّلها الحـزمتين، وصنع لنفسه مكاناً بينهما بعد أن بسط البـطانية على ظهـر الناقـة وقرر أن يستريح قليلاً.

نزع علبة التبغ من جيبه تناول حفنة سحقهـا بين يديـه المتشققتيـن وشرع يلفها. ولّع اللفافة، وتقرفص في مواجهة الناقة ممسكاً بالرصد، يرقب قرص الشمس الغارب ويرمق ذراعيه المجرحتين بأعـواد الحطب بين حين وآخر.

وصل الرجل مع الغروب. أسمر طويل القامة، عريض المنكبين. . وجهه شاحب. صارم. يكسوه الشعر. . شفتاه جافتان مشققتان. على رأسه عمامة بيضاء. يتلحف بجرد رمادي يميل إلى السّواد.

وقف قبالته وهتف بصوت عال أشبه بالصراخ:

ـ السلام عليكم.

ـ سلام ورحمة الله.

اندفع نَفَسَهُ كالفحيح.. شفته السفلى ترتجف، وهي تبدو أكثر بياضاً من العليا. غمغم بلهجة غريبة كالآمر: أعطني شربة ماء.

تأمل جرده الرمادي، وأدهشه لونه المائل للسواد، لأول مرة يرى جرداً بهذا اللون. لاحظ الرجل تردده فأضاف بضراعة مَنْ لم يعد يَطِقْ صبراً:

ـ الله يرحم والديك.

رمى عقب اللفافة. نهض وتناول غالون الماء بين الأمتعة والحطب. همَّ بفتح السدادة ولكن الرجل هجم عليه وانتزع الغالون من بين يديه. تساءل وهو يراقب الماء يسيل من شفتي الرجل ويفيض على وجهه ولحيته وجرده الغريب اللون:

ـ شن سَمَّاك ربي؟

مسح الرجل شفتيه بظهر يده وأحنى رأسه وهو ما يزال ممسكاً بالغالون وقد بدأ تنفسه ينتظم ولكن ملامح وجهه ظلت صارمة. ظل منحني الرأس لحظات قبل أن يسدَّ فوهة الغالون:

ـ هاتِ الرسن.

صرخ الرجل بوعيد وقد تلوَّنت عيناه ببياض مخيف. تراجع في دهشة وهو ما يزال متشبثاً بالرسن.

ولكن الرجل لاحقه بفوهة البندقية مهدداً وشفته السفلى ترتجف بشدة:

ـ هاتِ الرسن قلت لك.

لاحظ أن البياض في عينيه يزداد حتى اختفى السواد تماماً. فتحولت دهشته إلى خوف. سمع من الناس كثيراً عن قسوة قطاع الطرق، ولكن احداً لم يقل له أنهم مجانين. ألقى بالرسن واستمر يتراجع. التقط الرجل الرسن وتقدَّم من الناقة الباركة بهدوء تراقبهما في استسلام. ألقى بحزمتي الحطب

على الأرض وأبقى على الأمتعة. رفس بطن الناقة بقدمه وشدَّ الرسن. نهضت الناقة وقادها عائداً من نفس الجهة التي أقبل منها.

(٢)

غربت الشمس مخلِّفة وراءها شريطاً وردياً ساحراً. توقف الرجل بعد أن قطع مسافة صغيرة. علَّق البندقية على كتفه، نزع الغالون من كتفه الأخرى وألقى به على الأرض، ثم واصل طريقه يجرجر الناقة خلفه دون أن يلتفت.

ظل مبروك واقفاً ينتقل ببصره بين الشريط الوردي والناقة المستسلمة للرسن وهي تبتعد خلف الرجل.

في البداية لم يفكر في شيء، ولكنه تذكَّر أولاده الخمسة. عندما سقط ببصره على الحطب تملكه الغيظ، وأحس ببرودة عموده الفقري، وتحسَّر لأنه لا يملك بندقية. قاطع الطريق قطع له رزقه، فماذا بقي له غير الرعي عند الحاج بوكعبة؟ نعم.. الحاج بوكعبة ومضت في خاطره فكرة فانطلق خلف الرجل.

(٣)

عندما اقترب منه هتف وهو يلهث:

- اسمعني يا شن سَمَّاك ربي. اسمعني الله يرحم والديك.

التفت الرجل وتوقف. تشبَّث بالبندقية بكلتا يديه وقال بحقد وهو يصرُّ على اسنانه:

- امشِ من هنا أحسن لك. امشِ..

ولكن مبروك اقترب منه كأنه لا يكترث للتهديد. قال بضراعة وهو يلوِّح بيديه بالهواء:

- حرام عليك يا راجل.. عندي خمسة أولاد أمهم ماتت، كيف أعيل

هؤلاء اليتامى بغير الناقة.. مهنتي تجارة الحطب ولا أملك في الدنيا غير الناقة أجلب عليها بضاعتي.. يا الله

ضربه الرجل بكعب البندقية فسقط على ظهره فوق الأرض الرملية، فنهض على ركبتيه وتشبّث بجرد الرجل وهو يغمغم:

- بالله اسمعني.. الله يرحم..

تلقى ضربة أخرى فانكفأ على وجهه في الرمل... ولكنه نهض بعناد. وجهه يكسوه الغبار.. يبصق الدم وذرات الرمل على الأرض. عاد يقول بسذاجة كأنه لم يعد يرى البندقية:

- الحاج بوكعبة.. أتسمع بالحاج بوكعبة؟ بوكعبة يضمن لك الرزق الحلال.. من زمان يبحث عن راعي غنم.. رزقك مضمون عند.. اسمعني الله يرحم والديك.

(٤)

سأل مبروك وهو ما يزال يبصق الدم:

- شن سَمَّاك ربي؟
- الطاهر
- مِن أي قبيلة
- والله لا أعرف.. يقولون إني من الصيعان.
- الله يبارك.. الله يبارك. أنا إسمي مبروك، من الزنتان.

أناخ مبروك الناقة عند الحطب. ابتسم في وجه الطاهر وقال بنية صادقة:

- سنبيت هنا الليلة. سنبلغ النجع بعد الظهر، إذا تحركنا غداً عند الفجر.

تقرفص الطاهر عند كومة الحطب. لم تعد شفته السفلى ترتعش، وعاد السواد إلى عينيه. قدَّم له مبروك التبغ، وقال وهو ينتزع بضعة أعواد من حزمة الحطب:

- الحاج بوكعبة رجل طيب.

بدأ يحطِّم أعواد الحطب بين يديه ويجمعها في كومة صغيرة. تساءل الطاهر فجاءة، ولكن بلهجة كسولة:

ـ إذا كان رجلاً طيباً لماذا لا ترعى أنت غنمه.

أشعل مبروك عود الكبريت في كومة الحطب، وقال دون أن يلتفت نحو الطاهر:

ـ للطيبة حدود يا سي الطاهر. الحاج بوكعبة يعيل الرعاة لا أصحاب العائلات.. الراعي يأكل ويشرب ويلبس وينام فماذا يريد أكثر؟ أنت وحيد.. أمَّا أنا فعندي خمسة صغار يتامى.

ثم انحنى فوق كومة الحطب وشَرَعَ ينفخ النار. رفع رأسه بعد قليل وأضاف:

ـ أمهم ماتت من سنتين.. لدغتها عقرب حاشاك.

تصاعد الدخان من الكومة الصغيرة ولكن مبروك استمر ينفخ بعناد حتى انطلق اللهب وشرع يلتهم أعواد الحطب.

(٥)

على العشاء، أخرج مبروك من جراب صوفي ملـون قطعة خبز ولحماً جافاً، قطعه بالسكين قطعاً صغيرة وضعها مع الخبز على الجراب.

بعد العشاء شربا ثلاثة فناجين من الشاي الصيني الأخضر وبدآ في التهيء للنوم.

إندس الطاهر في ثنايا جرده الرمادي، وقام مبروك لتأدية صلاة المغرب والعشاء في وقت واحد. بعدها خُيِّل للطاهر أنه جلس طويلاً قبل أن ينبثق نغم الناي الحزين ويخرق سكون الليل والصحراء. أدهشه اللحن لدرجة أن أصداءه الحزينة ظلَّت تتردد في اذنه حتى بعد أن كفَّ مبروك عن العزف ولجأ للنوم، ولم يستطيع أن يتخلص منها حتى نعس مع اقتراب الفجر.

(٦)

النهار لم ينتصف بعد، ولكن الشمس باشرت حـرق الرمـل والأحجار والأعشاب الصحراوية اليابسة. مسح مبروك العرق عن جبينه وصدغيه بكم جلبابه قبل أن يتوقف.

- يجب أن نرتاح قليلاً.

أناخ الناقة ونزع من بين الحطب غالون الماء قدمه للطاهر وجلس القرفصاء يعدل من وضع عمامته على رأسه ليتحاشى أشعة الشمس.

قال الطاهر وهو يعيد له الغالون ويتقرفص أمامه على الأحجار الساخنة التي اسودَّت بعد أن كوتهـا شمس الصحراء القاسية:

- لحن البارحة ما زال يطنُّ في أذني.

تنحنح وأضاف:

- لقد أعجبني. كأنّي سمعته من قبل.

شرب مبروك الماء على جرعتين، مسح شفتيه بكفه وقال:

- كل الأشياء التي تعجبنا يُخيل لنا أننا رأيناها أو سمعناها من قبل رغم أننا لم نرها ولم نسمعها أبداً.

ساد صمت يخرقه اجترار الناقة. قال مبروك وهو يسحب علبة التبغ:

- منذ ماتت المرحومة والناي لم يفـارقني. الله يرحمهـا. تجلس بعد العشاء كل ليلة وتطلب أن أسمعها ذلك اللحن. . . كانت تسمع وتبكي. . الله يرحمها، لدغتها عقرب، عقرب كبيرة سوداء حاشاك.

سحب نَفَساً عميقاً من اللفافة قبل أن يقدمها لرفيقه، تأملها الطاهر قبل أن يتمتم:

- الله يرحمها.

سحب الدخان، وسعل بحدة تنحنح وعاد يقول:

ـ زوجتي أيضاً ماتت، عند هجوم الألمان الثاني على طبرق بعد أن احتلها الإنجليز ثلاثة أيام. عدت من الصيد فوجدت بدل البيت أنقاضاً يتصاعد منها الدخان، ومن يومها لم أعد إلى طبرق.

عبر امتداد العراء الوحشي بدأ يتسكع سراب فضي شفاف مؤذناً بانتصاف النهار وهجوم الحرّ. واصل الرفيقان رحلتهما صامتين، مبروك يتشبث بالرسن والطاهر يتلهى بدحرجة الأحجار بمداسه المطاطي حتى تلقفهما خلاء رملي تتخلله حفر كبيرة. التفت مبروك نحو رفيقه وقال:

ـ خذ حذرك هذه منطقة مزروعة بالألغام. زرعها الألمان والطليان قبل انسحابهم إلى طرابلس.

قال ذلك ومسح وجهه بكم جلبابه.

(٧)

تنهّد مبروك وأعلن أن منطقة الخطر قد انتهت فيما توقّف الطاهر فجأة ينظر إلى الأفق البعيد حيث يلتحم العراء بالسماء في عناق وحشي قاس. تساءل مبروك ملتفتاً نحو رفيقه:

ـ خير إنْ شاء الله.

غمغم الطاهر وقد بدأت شفته السفلى ترتعد:

ـ اللغم. اللغم.

هتف مبروك وهو يقفز كالملدوغ:

ـ يا سيذي عبد السلام استرْ.

وقف لحظة ذاهلاً، ثم همهم كمَنْ تذكّر شيئاً:

ـ رد بالك لا تتحرك.

تخلّى عن الرسن وأسرع يحفر خلف الطاهر الواقف كالعمود. كان يزيح الرمل، يمسح العرق، ويردد طوال الوقت، «سترك يا سيدي عبد السلام» حتى انتهى من حفر حفرة عميقة تحت الطاهر الذي تعب وبدأت قدماه ترتعشان.

نهض مبروك وقال وهو ينفض الغبار عن يديه :

- ربك يستر، خليك رجل.

وبدأ يشرح له كيفية السقوط. قال كلاماً كثيراً وأتى بحركات بهلوانية، ولكن الطاهر لم ير ولم يسمع. كان يفكر في شيء آخر: في الموت. في النهاية شدَّ على يده وجرَّ ناقته ومضى، ولكن الطاهر استوقفه وترجاه بلهجة طفولية:

- بـالله يا سي مبـروك كمل خيـرك وأجرك عنـد ربي، أسمعني لحن البارحة.

(٨)

مع انطلاق الناي الحزين تراءت للطاهر أشياء كثيرة غير السراب والخلاء الممتد إلى الأبد. رأى بيته المهدَّم وسحب الدخـان، والناس الـذين نهبهم وقتلهم وأحـرق بيـوتهم. ولـولا حـادث الأمس مـع هـذا المبـــروك المسكين، الطيب لاستمر في الصحراء يمارس حياته الطبيعية كالذئاب ولما فكر في العودة إلى حظيرة البشر أبداً، ولما وقف الآن خائباً مهزوماً يرتعد من الخوف: إحدى قدميه تضغط على لغم يهدد بالانفجار وأخرى تستعد للقفز في القبر. ما كان ينبغي أن يثق بالناس بعد أن أشبع فيهم ذبحاً وقتلاً ونهباً. إنه أصبح غريباً عن البشر وهم غريبون عنه فما الذي دفعه لأن يعود إليهم برجله ناشداً الرزق الحلال. ولكن الآن انتهى كل شيء ولا معنى للندم على شيء.

نزع البندقية عن منكبه وقال وهو يمدها لمبروك:

- خليها عندك للذكرى.

شدَّ مبروك على يده مرة أخرى، همَّ بالانصراف، ولكن الطاهر استوقفه قائلاً:

- أتعرف يا سي مبروك لماذا لم أقتلك أمس.

نكس مبروك رأسه دون أن يجيب، في حين قال الطاهر في قسوة:

ـ لأن البندقية فارغة من الرصاص، ولو كان فيها رصاص. .
قاطعه مبروك وهو يشدُّ الرسن ويمضي:
ـ لا بأس ربي يغفر.
عندما ابتعد صرخ الطاهر في اثره:
ـ سامحني يا سي مبروك.

(٩)

رأى مبروك وناقته شبحين يمتزجان بالسراب، لم يعد يحتمل الانتظار، فانهار في الحفرة، مرت لحظات، وربما دقائق قبل أن يصدق أنه لم يمت. لم يسمع حتى الانفجار. حرَّك قدميه ويديه وطفق يزيح التراب. كان التراب يغطيه تماماً ويضيِّق عليه التنفس ولولا التراب لما صدَّق أن اللغم قد انفجر.

وقف فوق القبر يتأمل حفرة هائلة صنعها اللغم وقد تملكه شعور مَنْ بُعِث إلى الدنيا من جديد بعد أن دُفِن. الشعور بأنه ما يزال يتنفس. . ويتحرك ويفكر. . ويحيا. . كل شيء حوله: الصحراء والأحجار الخرساء والسماء والسراب، تضحك في وجهه وتهتف له:

ـ أنت حي. . حي. . حي.
بعد لحظات وجد نفسه يجري، يجري، يجري، ويصرخ كالمجنون:
ـ أنا حي. . حي. . حي.

(١٠)

. . . وحتى عندما ادرك الناقة الواقفة فوق مبروك، تجترُّ بلا مبالاة استمر يصرخ ببلاهة:

ـ أنا حي يا سي مبروك. خوك الطاهر حي.

كان مبروك منطرحاً على قفاه فوق الرمال الرمادية الرامضة: عيناه

جاحظتان تلمعان تحت أشعة الشمس وخيط صغير من الدم ينبثق من رأسه حيث استقرت الشظية ليسيل على جبينه حتى يلامس شفتيه المتوجتين بابتسامة تمتزج فيها البراءة بالسخرية بالغموض.

موسكو ١٩٧٥م

الزّغب

بعد رحلة ثلاثة اسابيع استطاع أخنوخن أن يصيب غزالة وحيدة تائهة في العراء . .

في الصيف لا تجود السماء بغير اللهب والقبلي فتهجر الحياة الأعشاب البرية، وتختفي الغزلان والأرانب والبقر الوحشي من المراعي المجاورة. تهاجر إلى «تيناريفين» فتهبط الجبال الوعرة لاجئة إلى الأودية السفلية.

ولكن أخنوخن لم يجرؤ أن يتوغّل في الصحراء ويهبط خلف الجبال بسبب القبلي والجفاف. ظلَّ ثلاثة اسابيع يحوم حول البيوت. . يترصَّد الحيوانات البرية في العراء المجاور.

في منتصف النهار، والسراب يراقص الرمال السمراء، عندما يستسلم كل شيء في الصحراء للهيب الشمس المتدفق في عناد، استطاع اخنوخن أن يصيب تلك الغزالة الوحيدة التائهة في العراء. . أصابها. . عثر على الدماء المسفوحة على الرمل. . بعد أن انطلقت الغزالة كالسهم لتختفي خلف السراب. فهل كان ذلك حَدَثاً خارقاً لأخنوخن؟ لم يكن الحدث كذلك لولا ما شعر به في الشتاء الأخير من ضعف البصر ورجفة اليدين وزحف الشيخوخة والعمى فصمم أن يطارد الغزالة ليعيد الثقة إلى نفسه. . سافر في اثرها مسترشداً بخيط الدم المراق على الرمال. . يختفي ويظهر في بقع صغيرة يابسة. يمتطي ظهر المهري. يترجَّل كلما اختفى الخيط الصغير. وإذ يسود الظلام يتوسد البقع

الصغيرة. يصحو عند الفجر ليواصل رحلته حتى وجد نفسه - أخيراً - فوق قمة «تيناريفين».

* * *

.. كلما عاد إلى البيت مهزوماً يحكم اللثام حول رأسه، لا يجرؤ حتى أن ينظر في عيني إمرأته، يدفن رأسه في الصحن: يأكل التمر ويشرب الحليب، وغالباً ما يخفي عاره متظاهراً بمداعبة الطفل أو الاعتناء بالمهري.

ماتت أم الأولاد فتزوجها منذ سنتين. أنجبت الطفل بعد سنة.. وهجره الأولاد بسببها استنكاراً لاقترانه بإمرأة شابة تصغرهم سناً: نزحوا إلى فزان.. يجربون حياة أخرى في الفلاحة، تركوه وحيداً يصارع الصحراء وإمرأة شابة.

آثر أن يبقى على أن يجري خلفهم ليشاركهم عزق الأرض وركوب الحصير والتطاول في الزراعة.. أدرك أن أكبر عارٍ يكتسح جبين الرجل وهو يعود من معركته مع الصحراء خائباً حتى من أرنب، عندما يعود إلى بيت عامر بإمرأة جميلة وشابة، خاصة وهو يعرف أن مقياس الرجولة لدى المرأة ليس قدرته على مصارعتها في الفراش وإنما قدرته على مصارعة الصحراء. وقف فوق القمة يتأمل انحدار الجبل: صخور كبيرة تغطي امتداد السفح، أشجار برية صغيرة تتناثر متشبثة بالصخور في استماتة.. وهناك، أسفل الجبل، تنتشر هضاب مغطاة بأحجار سوداء، وأودية مكسوة بأشجار السدر والرتم والطلح وأعشاب برية شاحبة.

فوق القمة اختفى خيط الدم. في تلك اللحظة تذكَّر أخنوخن أنه لم ينمْ طوال المطاردة. حتى في اللحظات التي يتوسَّد فيها بقع الدم بهدف النوم يفكر في الغزالة طوال الوقت. في الليلة الأخيرة، عندما استطاع أن يغفو لساعات، رآها قافزة في الهواء.

لا تكاد تلامس الأرض، تفلت بمجرد أن يمسكها بيديه. عندما أمسك بذيلها في النهاية انسلخ زغب الذيل وانطلقت في الفضاء وبقي هو متشبثاً بالزغب.

نزع البندقية من السرج، قاد الجمل وبدأ يهبط السفح، ولكن المهري توقف بمجرد أن أبصر انحدار الجبل، حاول أن يجرُّه من الرسن ولكنه قاوم في اصرار. لم يكن أخنوخن في تلك اللحظة يفكر في شيء.. ربما كان ذلك الحيوان ـ الذي يبدو غبياً ـ يفكر نيابة عنه ويحذره بشيء أقوى من العقل: بالغريزة.

الغريزة أعظم من العقل عند الخطر. في منتصف الطريق أفلتت صخرة تحت خفِّ المهري فتهاوى فوق الأحجار. حاول أخنوخن أن يحثّه على النهوض ولكنه انهار على جنبه.. في تلك اللحظة أبصر الماء يتدفق ويتسلل تحت الصخور فأدرك أن القربة قد تمزَّقت عند سقوط الجمل. لم يعبأ بشيء.. انطلق عبر الصخور عندما رأى زغب الغزالة ملقى بين صخرتين هائلتين أسفل الجبل. رأى قطيعاً من الغزلان يرعى بهدوء في بطن الوادي. استمر يركض متتبعاً الغزالة الجريحة عبر ثلاثة أودية، وفي الرابع شاهد سرباً من الغربان تحلّق على ارتفاع شاهق.. تنعق ـ في اصرار ـ نعيقاً جماعياً. اختلَّ ميزان النهار. وشرعت الشمس تنكفىء نحو الغروب. وصل إلى حيث تحلِّق الغربان.. رأى ذئباً ينطلق فجأة بين أشجار الرتم والطلح.

أخيراً.. أدرك الغزالة.. ملقاةً تحت شجرة برية جافة الأغصان.

منفوخة تفوح منها رائحة نتنة، تتراكض فوقها الديدان وقد فقأت الغربان عينيها الساحرتين.. بقرت بطنها الذئاب نهشت امعاءها.. وذنبها الصغير عارٍ.. مجرد من الزغب.. وفي ساقها الخلفية حيث أصابتها الرصاصة تيبَّس الدم وذرات الرمل.

مسح أخنوخن العرق المتدفق فوق جبينه، بلل شفتيه المتشققتين بلسانه الجاف، كقطعة خشب، وقف طويلاً.. ينصت لنعيق الغربان الجماعي فوق رأسه، يتأمل الديدان وهي تتسلَّق الجيفة النتنة دون أن يفكر في شيء: لم يفكر في البيت.. ولا في قربة الماء.. ولا في قطعان الغزلان التي خلَّفها.. ولا في الجمل المحطَّم عند الجبل.. ولا في رحلته المجنونة خلف هذه

الجيفة المفقوءة العينين. . المبقورة البطن. . التي تفوح منها النتانـة فتقلب امعاءه الخاوية.

كان يفكر في ذلك الزغب المندس بين الصخور. . فهذا كل ما غنمه من لهاثه الطويل المجنون.

موسكو ١٩٧٥

من مجموعـــة
«شجــرة الرّتــم»
١٩٨٦م

واحة كبيرة تضجّ بالغناء

«إلى ذلك الذي سقط ميتاً لأنه استغاث بنا
ثلاث مرات ونحن تعمدنا ألّا نسمع صوته»
فينستي أليساندري - من قصيدة «لمَنْ
أكتب»؟[1].

- «أتعرف كم عدد قواتنا بالمقارنة مع
قواتك؟
- نعم أعرف، عشرات الآلاف. ورجالي
بضعة مئات.
- أتعرف نوع عتادنا؟
- نعم أعرف. إنه أحدث العتاد.
- وهل تعتقد أنك تستطيع أن تهزمنا برجالك
وعتادك هذا؟
- لا. كنت أعلم أني لا أستطيع.
- لماذا تحاربنا إذن؟
- كنت فقط أؤدّي واجبي».
«من حوار غراسياني مع عمر المختار قبل
تنفيذ حكم الإعدام»

(١)

إندفع جبران المرابط في الخلاء حتى بلغ بئراً إرتوازياً في واحة صغيرة تتبعثر فوقها مجموعة من أشجار النخيل. إنهمك يسحب الماء من البئر عندما

---

(١) ترجمة المؤلف عن الروسية. موسوعة الأدب العالمي مجلد «الشعر الأوروبي في القرن العشرين».

تناهى إلى سمعه عواء الذئاب. ظلّ يشرب من الدلو مباشرة حتى تقطّعت أنفاسه. رمى بالدلو جانباً بعد أن دَلَقَ الماء فوق رأسه وصدره. إنهار بجوار البئر وهو يلهث ويلتقط أنفاسه المتلاحقة. كان يموت من العطش.. ثلاثة أيام وهو يهيم على وجهه في الصحراء السرمدية بلا ماء بعد أن إتفق مع الجماعة أن يلتقوا في الحدود عقب إجتياز سلسلة الأسلاك الشائكة. لقد قرر أن يمر على النجع ليلقي نظرة أخيرة على الأهل: الأب، الأم، الزوجة والأطفال الثلاثة. حاول الرفاق إقناعه بأن لا فائدة ولكنه أصرّ. قال: «لا بدّ أن ألقي نظرة ولو من بعيد. ربما لن أرهم بعد ذلك أبداً». تناول مخلاته وانطلق عبر العراء الوحشي.

إتفقوا على اللقاء خارج الحدود، ثم اندفعوا يعانقونه. في النهاية شيّعوه بخيبة الأمل واليأس.

بلغ النجع فوجده محاطاً بالأسلاك الشائكة وجنود غراسياني يتسكعون حوله وبنادقهم مشرعة فوق مناكبهم. إنقبض قلبه وهاجمه اليأس فتراجع مندفعاً في الخلاء.. ميمماً صوب الحدود حيث الأسلاك الشائكة!

كانت الأسلاك الشائكة في تلك السنوات قد انتشرت ونُصِبَتْ في كل مكان كالمشانق!

تناهى إلى سمعه عواء الذئاب مرة أخرى. قريب جداً، هذه المرة. عواء نهِمٌ.. جائع، مفترس. إنها ذئاب سهل الجفارة المتوحشة المتعطشة لمهاجمة القطعان والرعاة. تفترس الرجال أيضاً عندما يبلغ بها الجوع حد الجنون. ظلّ يتنصّت لعوائها الجماعي العدواني حتى اقشعر بدنه.

لقد سلبه العطش قواه وزاده الماء خَوَرَاً وضعفاً بعد أن ارتوى من عطش ثلاثة أيام. فما العمل؟ إستمر متكئاً بجسده المنهك على حافة البئر وهو يلهث، يجول ببصره عبر العراء الأبدي المغمور بالسراب. العواء يقترب وعقله خامل، خائر مُعطّل عن التفكير. رمق البندقية الملقاة إلى جواره فتذكّر المعركة الضارية غرب الكفرة.. المعركة التي نفد فيها الرصاص من بنادق أغلب الرجال.

كانت أسلاك غراسياني الشائكة قد نُصِبت في الحدود مع مصر قبلهـا بشهور فمنعت تسرّب الـذخيرة، تـلاها سقـوط الشيخ الجليـل في الأسر. فأصبحوا بالمعركة الضارية غرب الكفرة في حل من الوعد الذي قطعوه على أنفسهم أمام الشيخ. لقد نفدت الـذخيرة. فتـدفقوا في الصحـراء ينشدون النجاة من المذبحة . .

(٢)

قبل وقوعه في الأسر بشهور قليلة قال لهم:

ـ أرجو المعذرة يا جماعة الخير. إذا أراد أحدكم أن يتراجع فله ذلك منذ الآن. إنني لا أُجبر أحداً على الإستمرار معي في القتال ولن ألومه أبداً إذا تخلّى. والله على ما أقول شهيد.

يومها قالوا له:

ـ والله يا سيدي عمر لن نتراجع حتى نموت معك أو ينفد ما معنا من الذخيرة!

هكذا قطعوا العهد على أنفسهم في حضرة الشيخ الجليل.

نظر إليهم طويلاً وهو يفرك يديه المعروقتين حتى ترقرقت عيناه بالدموع ثم تسللت أصابعه تداعب لحيته البيضاء. بعدها هرعوا نحوه يعانقونه واحداً تلو الآخر. تبادلوا معه تقبيل الأيدي أيضاً. وفي النهاية هبّوا لصلاة جماعية تأكيداً للعهد.

وحتى عندما وقع الشيخ في الأسر بعدها بشهور، وتمّ فيه تنفيذ الحكم استمروا في القتال إلى أن جاءت المعركـة الضاريـة غرب الكفـرة فنفدت الذخيرة ووفوا بالوعد.

حاصرهم اليأس فتدفقوا في الصحراء ينشدون النجاة من المذبحة. . .

(٣)

تأمل البندقية فخُيِّل له أنها الآن جثة هامدة بلا روح، بلا رصاص، لن تدفع عنه حتى الذئاب.

إنقطع العواء وانكفأت الشمس نحو الغروب. تناول جرابه وبندقيته وتلحَّف بعباءته ونهض متثاقلاً يتسلَّق شجرة نخيل تطلُّ على البئر. وخَزَهُ الشوك فافترش عباءته بين أعراف النخلة. حَبَسَ أنفاسه المتلاحقة وأنصت. لقد كفَّت الذئاب عن العواء تماماً.

من بعيد تراءى شبح جواد يسرع نحو الواحة الصغيرة. تابعه حتى اقترب فأدرك أنه جندي من الجندرمة يرتدي بزَّته العسكرية وبندقيته منصوبة فوق منكبه الأيمن. ترجَّل عن الجواد وركض نحو الدلو يرمي به في قاع البئر وهو يلهث من العطش. استمر يرقبه وهو يجثو على ركبتيه ويحشو رأسه في الدلو ويشرب في نهم فتذكَّر عطشه. ظلَّ جاثياً على ركبته وأنفاسه تتلاحق و.. فجأة حاصرته الذئاب. ثلاثة ذئاب، هو نفسه لا يعرف من أين جاءت. كأن الأرض لفظتها أو سقطت من السماء في ثانية واحدة. ضامرة، نهمة، متحفزة مكشرة عن أنيابها.

بُهت الجندي وظلَّ يحدِّق حوله في ذهول.. المفاجأة كبَّلت عقله ويديه فنسي حتى تناول البندقية المعلَّقة على كتفه، ظلَّت تحاصره وتقترب في شراسة ووقاحة، وقاحة ذئاب سهل الجفارة الجائعة التي سمع عنها كثيراً. وفي لحظة حاسمة إنقضت عليه.. هاجمه الذئب الأمامي أولاً فنهش رقبته.. إنبثق الدم وإنكفأ الجندي على وجهه مصدراً صوتاً غامضاً، حشرجة رهيبة يائسة، ثم إندفع نحوه الذئب الثاني والثالث، وشرعوا ينهشونه في وحشية..

دسَّ جبران المرابط رأسه بين يديه ولم يفق إلاَّ عندما سمع صهيل الجواد وهو ينطلق عبر الخلاء. في لحظة خاطفة أبصر الذئاب وهي تمزِّق جسد الجندي وتشرع في التهامه.

فجأة وجد نفسه يقفز من النخلة وينطلق راكضاً، استمر يعدو حتى أدرك

الجواد في وادٍ مكسوٍ بأعشاب برية يابسة. سايسه حتى قفز فوق ظهره، ثم إنطلق إلى الحدود.. هناك.. حيث تنتصب الأسلاك الشائكة..

(٤)

تلقفه الشيخ غوما بالأحضان مكبِّراً مهللاً بعد أن استلم منه لجام الجواد:

- الحمد لله على السلامة. كدنا نيأس من وصولك.. ولكن الرجال تتلاقى والجبال لا تتلاقى. نرجو أن تكون قد ظَفَرْتَ برؤية الأهل.

هبَّ لاستقباله أيضاً بهلول ومسلم ولكن أحداً غيرهما لم يظهر. عانقهما أيضاً ولجأ إلى النخلة المتواضعة التي اتخذوها بيتاً لهم بعد أن غطوها بجرد صوفي من النوع الذي يُستعمَل في الشتاء. إنهار بجوار موقد النار المتوَّج ببراد الشاي الصيني الأخضر. تناول وعاء الماء وشرب حتى تدفقت خيوط الماء بين شفتيه. طَفِقَ يلهث وهو يرقب مسلم يروِّض الجواد ويحاول أن يسوقه إلى البئر حيث تتزاحم جمال وجياد لا يعرف من أين جاءت.

تساءل بعد لحظات:

- أين بقية الجماعة؟

إبتلع سؤاله الخلاء فلم يتلق جواباً من أحد. ولكنه عاد يتساءل في إصرار طفولي:

- أين بقية الجماعة؟

رمقه بهلول بنظرة حانقة خاطفة، ثم نكس رأسه وشرع يمروح موقد الجمر معتنياً بإعداد الشاي. إقترب مسلم وتقرفص بجواره متسائلاً:

- كيف ظَفْرتَ بالجواد؟ كيف اجتزت الأسلاك؟

كتم غيظه قبل أن يتساءل للمرة الثالثة:

- كيف حال بقية الجماعة.. أين الجماعة؟

ولكن أحداً لم يجبه. راقبهم وهم يتراكضون هنا وهناك حتى أغفا وغلبه النعاس.

مرَّت لحظات قبل أن يرى الجماعة وهم يتسابقون إلى الجبل . .

(٥)

عبروا الأسلاك الشائكة بمعجزة فنفذوا إلى الخلاء . . ولكن الطليان الهجّانة كانوا في إنتظارهم . أطلقوا النيران فتدفق الجماعة في العراء . . تساقط بعضهم ولكن الشيخ غوما صاح بأعلى صوته وهو يروِّض ناقته الهائجة :

ـ الجبل! عليكم بالجبل!

لم يكن جبلاً حقيقياً، ولكنه ربوة صغيرة، تل صخري تعلوه الرمال فيبدو كجبل حقيقي . فقدوا السيطرة على الدواب بعد أن فقدوا السيطرة على أنفسهم فخاضوا في الفوضى مما جعل الشيخ غوما يجري هنا وهناك هائجاً صارخاً :

ـ الجبل! عليكم بالجبل!

في تلك اللحظة أدركه أول طلياني من الهجّانة مسدداً نحوه فوهة البندقية . ولكن الشيخ غوما الذي عرف حيل الحروب القبلية، وتربى على ترويض الجمال والمهاري سقط على ظهره ورفس الجمل بحركة بهلوانية خبيرة فانهار الجمل، وتدحرج الطلياني بضعةأمتار . هجم الشيخ على البندقية وهشَّم رأس الطلياني بكعبها في طريقه وأطلق ساقيه للريح . . كانت الفوضى في ذروتها . الهجّانة يصطادون الجماعة ببنادقهم كالخرفان، الجماعة الذين نفد رصاصهم في آخر معركة ضارية غرب الكفرة .
لذلك لم يستطع الشيخ غوما أن يطلق طلقة واحدة، ظلَّ يركض حتى بلغ السفح حيث ارتطم بالبهلول الذي شَرَعَ يرضع الماء من قربة . لكزه الشيخ بكعب البندقية صارخاً :

ـ الجبل، الجبل، يا كلب!

إنبثق الدم من جبين البهلول ولكنه لم يتخل عن ضرع القربة . ففتكها

الشيخ غوما برصاصة. كانت أول رصاصة يطلقها ذلك اليوم على الإطلاق. ثم إندفع إلى الجبل!

عندما بلغ قمة الجبل أطلق صيحة: «الله أكبر».

ثم شرع يصطاد كما تعوَّد أن يفعل مع الغزلان الطائـرة في الهواء في الزمان القديم قبل أن يعرف الخلاء المعتقلات والمذابح. في ذلك الزمان القـديم الذي كـان يتعمد فيـه أن يصيب غزالتين بـرصاصـة واحـدة! تلك الرصاصة التي لا تخطىء!

وقف فوق قمة الجبل وصوَّب وهو واقف..

كان أول طلياني أسقطه يمتطي صهوة جواد جامح خبير بالمعارك، إنهار الرجل فرأى كيف قفز مسلم الجريح وتناول بندقيته وشرع يطلق النار.

ثم.. ثم أصاب ذلك الفارس الذي يتقرفص فوق مهري عنيد مدرَّب أيضاً.

ظلَّ الشيخ غوما يصوِّب ويصطاد كما كان يفعل مع الغزلان أيام الشباب حتى نفدت ذخيرة البندقية فتذكَّر الشيخ عُمَر والمعركة الأخيرة غرب الكفرة.

راقب فلولهم وهي تحتمي بالخلاء الأبدي، فانهار فوق قمة جبله الصغير ودَسّ رأسه في التراب. بعد لحظات أيقـظه مسلم وهو يضمِّـد جرحـه في الذراع الأيمن. رفع رأسه يتأمل السهل المزروع بضحايا الرفـاق، وعندمـا شاهد البهلول انتفض واندفع نحوه كالمجنون:

ـ إتفو. يا كلب.. الرجال تموت وأنت ترضع من القربة كالمـرأة. إتفوه. خزي..

حال بينهما مسلم الذي احتواه بين ذراعيه في حين ظلَّ الشيـخ يتمتم ويبصق:

ـ عار. عار والله. خزي... إتفوه...

(٦)

عندما نهض فوجيء بالشيخ غوما ينكفيء فوق رأسه. كان يسبح في العرق والكابوس.

قال الشيخ غوما بهدوئه المعتاد:

ـ الحمد لله... الحمد لله الذي جمعنا مرة أخرى.

تنحنح فأضاف:

ـ أرجو أن تكون قد ظفرت برؤية الأهل. هذا هو المهم.

إعتدل جبران المرابط في جلسته وتناول طاسة الشاي من يد البهلول قائلاً:

ـ نعم. لقد عرفت الآن من أين جاءت كل هذه الجياد والابل.

رمقه الشيخ غوما بنظرة استفهام ولكنه عاد فنكس رأسه. قال بعد قليل:

ـ الحمد لله على السلامة. سوف نبلغ الواحة الكبيرة بعد يومين. الواحة الآهلة بالسكان. لم نر واحة آهلة بالسكان منذ سنين. رحمة الله على الشيخ عمر. في الواحات ثمة الفرح والمزمار والرقص والغناء. لم أغن منذ سنوات، ولم أسمع لحناً منذ زمن، ولم أر رقصاً ولا فرحاً.

رحمة الله على الشيخ عمر.. أحم..

ولكن جبران المرابط لم ينبس. أخرج مزماراً من جيبه الداخلي وطفق ينفخ فيه لحناً مرزكاوياً قديماً.

(٧)

قبل أن يبلغوا الواحة الكبيرة الآهلة بالسكان والأفراح والمزامير والرقص والغناء بيوم واحد قرروا القيلولة وتناول طعام الغداء. شرع الشيخ غوما يجلب الحطب ويكبِّر النار. أمَّا مسلم فقد هبَّ يعدّ لتحضير الخبز. تناول الوعاء وألقى بالدقيق، لاحظ جبران المرابط أن الدقيق لن يكفي فألقى لمسلم بجرابه

الجلدي ثم تناول مزماره وشرع يعزف. يعزف اللحن المرزكاوي.. ويحلم بالواحة الكبيرة الآهلة بالسكان والأفراح والمزامير والرقص والغناء. الغناء...

.. حتى سمع بأذنه الرصاصة وهي تسقط. سقطت الرصاصة من جرابه. رصاصة حقيقية لا يأتيها الباطل. سقطت في الوعاء المُعَدّ لعجن الدقيق.

توقف الشيخ غوما فجأة دون أن يلتفت، ولكن لبضع لحظات فقط، واصل بعدها تجميع الحطب. رمقه البهلول بنظرة خاطفة ولكنها صارمة. أمّا مسلم فقد نكس رأسه فوق الوعاء.

توقف جبران المرابط عن العزف.. نزع شفتيه عن المزمار، زحف نحو مسلم حيث الوعاء، تأمل الرصاصة بفضول. رصاصته بلا شك. فأين كانت تختفي؟ لقد عبر الصحراء الكبرى كلها على قدميه عندما كانت رصاصة كهذه تساوي جواداً، وصمم على رؤية الأهل حيث بوسعه أن يفعل شيئاً برصاصة واحدة، وتسلّق نخلة هرباً من مواجهة الذئاب ببندقية فارغة، وقفز من النخلة.. وتسلل عبر الأسلاك، والتحق بالجماعة.. و... «هرب» من المعركة الضارية غرب الكفرة وفي جيبه رصاصة فأين العهد؟ أين العهد الذي قطعه مع رفاقه أمام الشيخ الجليل؟

زحف جبران المرابط نحو مسلم الذي توقفت يداه عن عجن الدقيق كأنها شُلّتْ.

تناول الرصاصة الصغيرة وشرع يقلبها بين أنامله، يتأملها بفضول، ثم ألقى بها في جيبه.

عاد جبران المرابط يداعب فوهات المزمار ويروّض لحن المرزكاوي:

طاحن نجوم الليل وأنت وينك؟
قردك سهر وإلا خذاتك عينك؟

أكل معهم خبز الملال في صمت. إقترب المغيب عندما نهض جبران

المرابط إلى جواده. ذلك الجواد الذي أنقذه من الذئاب، ومن أسلاك غراسياني الشائكة.. قاده وعاد إلى هناك.. هناك حيث تنتصب الأسلاك الشائكة نفسها.. قال بهلول:

ـ لا فائدة ماذا تفعل؟ لا فائدة. إنتهى كل شيء.. لن تستطيع أن تفعل شيئاً..

عالجه الشيخ غوما بكعب بندقيته الفارغة وصاح:

ـ إسكت يا مرة!

شيعه مسلم منكس الرأس. لم ينطق بكلمة، ولكنه رأى في عينيه كل شيء.

في الطريق إلى «هناك» حيث تنتصب الأسلاك الشائكة رافقه الشيخ غوما مسافة طويلة.. في ذلك اليوم وقف الشيخ غوما يرقب جبران المرابط الذي شرع يختفي رويداً خلف التلة الرملية يبتلعه الأفق ويلتهمه السراب.

مسكين جبران المرابط! لم يُسْعَدْ برؤية الواحة الكبيرة الأهلة بالسكان، والأفراح، والمزامير والرقص، والغناء. كما لم يُسْعَدْ قبلها برؤية الأهل والزوجة والأطفال.

مسكين جبران المرابط! لأنه لن يسعد برؤيتهم إلى الأبد. لقد ذهب ذلك اليوم ليتخلّص من رصاصة تائهة وجدَتْ في جرابه فلم يعد أبداً!

الغــزلان

﴿وما من دابةٍ في الأرضِ ولا طـائرٍ يـطير بجناحيه إلاّ أُمَمٌ أمثالُكُم ما فرّطنا في الكتاب من شيءٍ ثمّ إلى ربهم يُحْشرون﴾.

القرآن الكريم

[سورة الأنعام الآية ٣٧]

(١)

في الماضي، قبل أن تجتـاح الصحراءَ الـلاندروفـر والبنادقُ المـزوَّدة بالخرطوش، لم يكن صيد الغزلان بمثل هذه السهولة.

كان الصيد رحلة طويلة تُتوَّج بالوداع والعناق والدموع والتمنيات الحارة بالعودة. تعود - أحياناً - بشاة غزال، وأحياناً أخرى لا تعود أبداً. تصيد شاة أو تصطادك الصحراء الرهيبة.

يذكر تلك السنوات العصيبة. يمتطي صهوة المهري ويغيب في الخلاء أياماً، وأحياناً أسابيع كاملة. يعايش الآفاق والسراب والفراغ، يجوع حتى يضطر لأكل أوراق الأثل وجذوع السدر. يعطش حتى يشرف على الموت.. يشرب دم المهري إذا لم ينقذه عابر سبيل. يعود مجللاً بالعار أحياناً أخرى، في غيبوبة، حاسر الرأس، حافي القدمين، بعد أن سلب العطش الوحشي وعيه.

في ذلـك الماضي كـانوا يعـاملون لحم الغـزال كـ «الـدواء». يُملَّح، يُجفَّف، يُقطَّع ويُدَسّ في إناء حصين، يتناولون منه قطعاً صغيرةً في وجبات متباعدة.

ظلَّت الأوديـة والسهول والعـراء عامـرة بقطعـان الغزلان، تتحـرك في مجموعات هائلة تغطي مساحات واسعة، بمجرد أن تطلق رصاصـة واحدة تهبُّ في مجاميعَ تفوق أسراب الجراد التي تحجب قرص الشمس في الفضاء عند هجومها.

ولكن اللاندروفر اكتسحت الصحراء في السنـوات الأخيرة واستبـاحها المغامرون المزوَّدون ببنادق الخرطوش الرهيبة يصيبون عدة شياه، في مرة، بطلقة واحدة.

ومع مرور الوقت واستمرار حملات الإبادة بدأ الغزال يتضاءل ويهاجر. يهاجر إلى المناطق الجبلية في الجنوب، بل ويندفع عـابراً الحـدود، نحو الصحراء الجزائـرية. جـاء كل ذلـك مع الشـركات البـاحثة عن النفط في الصحراء.

ساد الجفاف ولجأ الأهالي إلى الواحات. يتطاولون في الزراعة، يعملون في الوظائف الحكـومية، يعبِّـدون الطرق التي تتيـح للشركـات استباحـة الصحراء والتوغل في الخلاء بحثاً عن النفط.

(٢)

حاول مرزوق مع الزراعة ففشل. عمل حارساً في دائرة حكومية فطُرِد. واستقرَّ به المقام عاملاً في تشييد الطرق حتى جاء ذلك اليوم الذي استدعاه فيه رئيس مركز البوليس في الواحة.

قال وهو يقدِّم له فنجاناً من الشاي الصيني الأخضر:

ـ لقـد أصدرت الحكـومة قـراراً بحمايـة الغزلان من الإبـادة ووضـع الصحراء تحت الرقـابة. واعتقـد أنك أصلح مَنْ يتـولّى هذه المهمـة نظراً

لخبرتك الطويلة في الصحراء وفي . . حبك للغزلان. لقد عاشرتهم طويلاً أليس كذلك؟

تناول رشفة من فنجان الشاي وأجاب:
- نعم. لقد عاشرت الغزلان طويلاً. إنني أحب الغزلان.

- ثقتي فيك كبيرة. إنها تشرف على النهاية. سوف تندثر إذا لم نتخذ الإجراءات اللازمة لإنقاذها.

دوَّن ملاحظات في أوراق أمامه وقال:
- إذاً تعاهدني أنك ستقوم بالواجب.
رفع رأسه وأضاف دون أن ينتظر إجابته:
- كم تتقاضى كمرتب في شركة تعبيد الطرق؟.
- خمسة عشر جنيهاً حضرة الأفندي.
- حسناً. سيكون أجرك خمسة وعشرين جنيهاً. وتحت تصرفك سيارة لاندروفر، وسائق.
فضحت أساريره بهجة مفاجئة وتمتم بامتنان:
- شكراً سيدي. شكراً جزيلاً. أرجو ألاَّ أخيِّب ظنك.

نهض الضابط من مكتبه وأشار لعسكري يقف بجوار الباب بيده. أتى العسكري ببندقية خرطوش سلَّمها للضابط الذي قال:

- سوف أُسلِّمك بندقية أيضاً وحفنة من الخرطوش للاحتياط والدفاع عن النفس إذا هاجمك أي مغامر.

ثم تناول ورقة ممهورة بختم الداخلية وقال:
- هذا قرار يفوِّضك بمصادرة أية بندقية من أي مغامر في الصحراء يقوم بالصيد بدون إذنٍ رسمي مكتوب. ويعطيك الحق في اعتقاله ومصادرة سيارته. إنك الآمر، والعريف ميمون بمثابة سائق ومساعد لك.

شدَّ على يده بحرارة، وتمنى له التوفيق.

زوَّد ميمون اللاندروفر بالمؤن وبراميل الماء والبنزين وعند الفجر إنطلقا

باللاندروفر تلتهم العراء المنبسط على مدى البصر كأنه يمتد إلى الأبد، تجرُّ وراءها ذيلاً كثيفاً من الغبار.

(٣)

قبل هبوط الظلام اندفعت غزالة وحيدة أمام السيارة. صاح ميمون:

ـ هيا أطلقْ. إنها عشاء ساقه الله لنا.

التفت مرزوق وقال في دهشة.

ـ ولكن... لقد وعدنا رئيس المركز.

أطلق ميمون قهقهة عالية وقال من بين أسنانه الكبيرة السوداء:

ـ يا لك من أبله. أرجو ألاَّ تكون قد صدَّقت ما قاله لك رئيس المركز. سوف تجده غداً أمامك وفي مؤخرة سيارته عشرة رؤوس من الغزلان. ماذا ستفعل وقتها؟ هل ستصادر منه السيارة والبندقية والغزلان كما قال لك؟

قال مرزوق دون أن يرفع بصره على الغزالة التي استمرَّت تتقافز في رشاقة أمام السيارة محافظة على المسافة الفاصلة بينها وبين الآلة الرهيبة:

ـ نعم. يجب أن أفعل. من حقي أن أفعل.

عاد ميمون يضحك قبل أن يعلن:

ـ سوف يطردك فوراً ويأتي بغيرك في اليوم التالي. لقد فعل ذلك أكثر من مرة.

وعلا ضحكه مرة أخرى...

صمت مرزوق لحظات ثم تناول البندقية، دسَّ في أحشائها الخرطوش، أخرج رأسه من النافذة وصوَّب نحو الغزالة وضغط على الزناد. إنبثق الدوي فانقلبت الغزالة عدة مرات، ثم سكنت وشرعت تنتفض بشدة.

أوقف ميمون السيارة بجوارها وتناول السكين. قال مرزوق كأنه يعتذر:

ـ أن تتعشى بغزالة شيء، وأن تبيد القطعان وتتاجر بلحم الغزلان شيء آخر.

(٤)

هبط المساء.

تولّى ميمون سلخ الشاة بعد أن علّقها في باب السيارة. ذهب مرزوق يجلب الحطب من سهل مغطّى بأشجار السدر والرتم والأعشاب البرية اليابسة التي بدأ الخريف ينزع منها الاخضرار والحياة.

عاد بحزمة كبيرة بين ذراعيه ألقى بها بجوار السيارة، وصنع منها موقداً هائلاً.

مع الشواء جاء ميمون بزجاجة نبيذ أحمر من اللاندروفر، فتحها وشرب جرعات من الزجاجة مباشرة. ثم قدّمها إلى زميله. قال مرزوق.

- ما هذا؟ لا. أنا لا أشرب الخمر.
- جرِّب. لن تندم.
- لا. لا أريد.
- إنه لذيذ، خاصة مع الشواء.
- لحم الغزال لذيذ بدون خمر. إنه دواء يعالج كل الأمراض.
- خرافات. جرِّبه مع النبيذ وسوف تشعر بالسعادة والحرية.
- أنا سعيد هكذا والحمد لله.
- سوف تتحرر من كل شيء، صدِّقني.
- مم أتحرر؟
- ها.. ها.. ها.. من عقلك مثلاً.
- لا أريد أن أتحرر من عقلي. أنا سعيد هكذا.

ساد صمت عميق بينهما. عاد ميمون يشرب من الزجاجة مباشرة ويأكل قطع اللحم المشوي.

نهض. تمشى قليلاً عبر العراء دار حول السيارة وعاد.

قال بإكتئاب:

ـ صدِّقني لم أتعوَّد أن أشرب وحدي. يجب أن تشاطرني ولو من باب المجاملة.

إستمر مرزوق يلوك قطعة لحم ويراقب ألسنة النار المتأججة.

بعد قليل رفع رأسه وقال بتردد:
ـ حسناً. جرعة واحدة لا أكثر!

تناول الزجاجة وشرب جرعة. إبتلعها بصعوبة وهو يقطب حاجبيه.

مع منتصف الليل كان قد شرب لوحده زجاجة ونصف. ثم قام يرقص على رجل واحدة ويغني، ويردد بين الحين والآخر في فرح صبياني:
ـ يا ميمون أنت وغد! أنت حلوف كبير!

(٥)

إستيقظ مرزوق عند الأصيل. بدأت الشمس تصهد الكائنات وتحرق الأخضر واليابس برغم حلول الخريف.

زحف مرزوق نحو غالون الماء وقال:
ـ الصداع، يا له من صداع. رأسي يكاد ينفجر.
شرع يشرب من الغالون مباشرة.
ضحك ميمون الذي كان قد نهض مبكراً وشرع يتفقد السيارة.

أتى بزجاجة نبيذ أخرى. صبَّ في قدح من الألومونيوم. قدَّم له القدح وقال بتخابث:

ـ إشربْ هذا وسوف ترى. الدواء في الدّاء ولا يفلُّ الحديد إلاّ الحديد.

أشاح مرزوق بوجهه وهمهم:
ـ لا، لا. لا أستطيع.
ـ إشربْ وسترى أن في هذا علاجك. إشربه دفعة واحدة وسترى النتيجة.

أمسك مرزوق بالكوب بعد تردد ويده ترتعش. أغمض عينيه وشرب.

مرّت لحظات قبل أن يقول:

ـ صحيح، رأسي أحسن الآن.

قال ميمون ضاحكاً:

ـ أرأيت؟ الحمد لله أنني تزوّدت بكمية كافية وإلاّ فإن منافستك لي ستؤثر كثيراً على مؤونتي من النبيذ! علينا الآن أن نرحل ونبحث عن الغزلان.

ـ الغزلان؟

ـ نعم، عن الغزلان. هل تريدنا أن نبحث عن المغامرين؟ سيكون رئيس المركز أول مَنْ ستقابل إذا كنت ما زلت جاداً في البحث عن هؤلاء.

إقتربت القيلولة. إنطلقا عبر الخلاء.

في السيارة شرب مرزوق كثيراً، وعندما أَطلّت السيارة على السهل الكبير وتوقفت فوق مرتفع، كان قد ثمل تماماً. صاح بذهول:

ـ أنظر! يا له من قطيع، أنظر!

في السهل تتناثر أشجار كثيرة: سدر، رتم، أثل وأعشاب برية لم يغادرها الإخضرار برغم هجوم الخريف. أمطار الشتاء الماضي غزيرة في هذه الأودية.

السهل يعجُّ بقطعان الغزلان. قطعان ذكّرته بالسنوات الماضية عندما كانت السيول جارفة، وسيارات اللاندروفر وبنادق الصيد بالخرطوش لم تدخل الصحراء. كان يتسلل من ربوة إلى ربوة، ومن شجرة إلى شجرة حتى يقترب من القطيع، يسدِّد فوهة البندقية من مسافة قريبة، يسمّي بإسم الله ثم يضغط على الزناد. وبرغم أن الرصاص يُبَاع في السوق السوداء بثمن فاحش وقتها إلاّ أنه لا يطلق النار إلاّ بعد أن يتمتع طويلاً برؤية الغزال وهو حيّ، يا له من سحر! يا له من جمال، يا لها من رشاقة! يا لها من خفة دم!

إنه أجمل مخلوق على الأرض، يستحيل أن تجد له مثيلاً في الدنيا كلها.

ولكن الجوع أقوى من الجمال، أقوى من أية عاطفة نبيلة، فيضغط على الزناد رغماً عنه.

همس بصوت مبحوح دون أن يتوقف عن متابعة القطيع الهائل:
- أعطني الخرطوش. كم معك من الخرطوش؟

قال ميمون بخبث:
- كمية كافية. لقد سرقت من المركز كمية كافية لإبادة كل الغزلان في الصحراء.

هبط مرزوق بهدوء والبندقية في يده وبصره معلق في السهل المزدحم بالحيوان الرائع. ألقى له ميمون بقطع أخرى من الخرطوش.

وفجأة بدأ الدوي ينبثق. طلقة وراء أخرى، وكلما فرغت البندقية حشاها بالبارود.

إستمر يطلق والغزلان البائسة تتساقط فرادى ومجموعات، وعندما فزع الحيوان وتحرك القطيع هارباً بدا كأن السهل الكبير كله يتحرك.

صاح ميمون:
- يكفي. ألا ترى أننا لن نستطيع أن نلحق ونذبح هذه الكمية كلها!

ولكن مرزوق استمرَّ في إطلاق النار كالمجنون.

وعندما ابتعد باقي القطيع قفز إلى اللاندروفر وصاح في وجه ميمون:

- هيّا بسرعة، إلحقْ بالقطيع، سوف أريك كيف يكون صيد الغزلان!

قال ميمون بذهول:
- ولكن هذا لا يجوز. هذا جنون. سوف تجيف كل الغزلان في السهل.. سوف تضيع.
- قلت لك هيًا!
داس ميمون على البنزين وتمتم كأنه يخاطب نفسه:
- إنك ثمل تماماً!

لحقت اللاندروفر ببقية القطيع في العراء الممتد بلا نهايـة. إقتحمت قلب القطيع فشـطرته نصفين، وتـولّى مرزوق تصفيتـه ببندقيـة الخرطـوش الرهيبة. لم يجد عناء أبداً. الرصاصة الواحدة تحصد غزالاً، غزاليـن، ثلاثة غزلان، وأحياناً أربعة غزلان دفعة واحدة. ظلت تتساقط كالذباب.

توقفت السيارة. قفز ميمون وفي يده السكين. وتناول مرزوق زجاجـة النبيذ، فتح الفلين بأسنانه وشرع يشرب من عنق الزجاجة. بعد قليل قفز إلى الأرض، مسح العرق المندفع من رأسه على وجهه بطرف عمامتـه، أجال ببصره عبر العراء المنبسط المغطّى بالدم وبجثث قطيع الغزلان كأنه ينظر في الفراغ. إستلقى على ظهره كأن شيئاً لم يحدث.

في حين استمر ميمون يسبُّ ويلعن وهو يحاول أن يذبح أكبر كمية:

ـ هذا جنون. هذه مجزرة، جريمة. لعنة الله على النبيذ!

(٦)

زرائب الأهالي المصنوعة من جريد النخيل تتناثر في ضواحي الواحة. وصلت اللاندروفر مع منتصف الليل. الهدوء يخيم على الزرائب. ذهبوا إلى بيت مرزوق أولاً. أيقظ زوجته بعد أن أنزل نصيبه من الغنيمة وودّع ميمون.

صاحت الزوجة من الفزع وهي تخبط صدرها بيدها:

ـ يا ربي! ما هذا كله! هل يعقل أن يكون كل هذا غزلان؟

صاح في وجهها:

ـ أغلقي فمك. لا أريد أن يسمع الجيران كلمة.

قبل أن ينهض لينام قال:

ـ لا تنسي أن ترسلي شاة إلى الشيخ غوما. غوما فقط لا غير.

في المنام رأى الوادي الكبير الغارق في الدم والجثث. وفي مساء اليوم التالي ذهب لزيارة الشيخ غوما. إستقبله عند مدخل الزريبة. قال وهو يعدّ له الفرش وينادي ابنته لتحضير الشاي الصيني الأخضر:

ـ الحمد لله على السلامة. لقد تلقيت هديتك اليوم. شكراً لك. ولكن لماذا التبذير؟ غزالة كاملة!! تكفي قطعة واحدة يا بنيّ. لحم الغزال لم يُخلَق للشبع، لحم الغزال دواء. قطعة صغيرة تكفي. هكذا كان على أيامنا. أمّا اليوم... ولكن قلْ لي بالله هل الغزال وفير في الصحراء؟ كيف هي بعدما تركناها؟

قال مرزوق وهو ينظر إلى الأرض:

ـ الصحراء هي الصحراء يا عمي الشيخ. الغزال بدأ يقلُّ. اللاندروفر والبنادق الجديدة كما تعلم...

قاطعه الشيخ:

ـ لعنة الله على اللاندروفر وعلى البنادق الجديدة ولكن هل هناك عشب كأيام زمان؟

ـ نعم.. ولكن الخريف..

سارع الشيخ يقاطعه مرة أخرى:

ـ أعرف، أعرف، لقد مضى الموسم. آهٍ إنني في غاية الشوق إلى الصحراء. في السابق كنت أشرب حليب النوق، وآكل الكلأ والكمأ في الربيع، وأصطاد غزالتين في العام. يا لها من أيام.. الصحراء جنّة الله. الصحراء أعظم ملجأ للإنسان. يقولون إنها كانت ملجأ حتى للأنبياء. للنبي محمد والنبي عيسى والنبي موسى أيضاً.

صمت لحظة ثم أضاف بحزن:

ـ ولكن الجفاف. لقد طَرَدَنا منها الجفافُ في السنوات الأخيرة، ولكن لا بدَّ أن نعود، كيف نستطيع، يا بني، أن نعيش بدون الصحراء؟

ترقرقت مقلتاه بالدموع وخبط صدره بسبابته قائلاً:

ـ إنها هنا. الصحراء هنا في القلب.

وعندما نهض مرزوق للإنصراف شيَّعه الشيخ غوما قائلاً:

ـ ردّ بالك من نفسك. هؤلاء المغامرون أوغاد كما سمعت. إنني

مطمئن الآن على الغزلان المسكينة في الصحراء. إنها أمانة في عنقك يا بني!.

ثم شدَّ على يده وأضاف:

- إيَّاك والتبذير. إن المبذِّرين إخوان الشياطين. لأنهم يفسدون في الأرض ولهم عذاب أليم.

(٧)

في الرحلة التالية إصطاد مع ميمون غزالتين. ذرعوا الصحراء باللاندروفر طوال يومين ولكنهما لم يظفرا إلاّ بغزالتين. حول موقد النار بدأ مرزوق يحضر للشواء مع هبوط المساء. من بعيد تراءت أضواء سيارة قادمة.

قال ميمون وهو يخطف زجاجة نبيذ من اللاندروفر:

- ربما كانت سيارة أحد المغامرين، أو ربما عابر سبيل بريء.

شرب من عنق الزجاجة مباشرةً كعادته، ثم قدَّمها إلى مرزوق. إقترب هدير المحركات فقام ميمون يخبىء الزجاجة.

وصلت السيارة فنزل منها رئيس المركز. قال يخاطب مرزوق بلهجة ذات معنى:

- أرى أنك تقوم بواجبك كما ينبغي. من دواعي الفخر أن تهدأ الصحراء، ويشعر الغزال فيها بالأمان. إنه ثروة قومية نادرة كما تعلم.

جلس القرفصاء بجوار الموقد. ولَّع سيجارة بعود من نار الموقد المتأججة وقال:

- هل لديك شيء من النبيذ يا ميمون؟ أشعر بالتعب وأمامي طريق طويل، يجب أن أكون في عملي غداً. عملي في المركز وليس في الصحراء مثلكما.

ضحك بخبثٍ ثم مدَّ يده وتناول قطعة شواء. سأل بعد قليل:

ـ كم غزالة إصطدتم في اليومين الأخيرين؟

قال مرزوق بتلعثم:

ـ غزالتين فقط سيدي.

ـ فقط؟

ألقى بالتساؤل في لهجة شك، ثم نهض وتوجَّه إلى السيارة. تفقَّد الغزالة الوحيدة الملقاة في المؤخرة وانتزع من الصندوق زجاجة نبيذ وعاد يجلس القرفصاء أمام الموقد. فتح الزجاجة وشرب مباشرة، كما يفعل ميمون، وكما تعلَّم مرزوق أن يفعل.

قال بعد قليل:

ـ أستطيع أن أدعم موقفكما بغزالة من عندي.

جلس مرزوق القرفصاء أمام رئيس المركز، فيما ذهب ميمون ليأتي بالزجاجة التي خبأها.

إستمر رئيس المركز يقطع اللحم بالسكين من الغزالة المثبتة بعمودين من الصدر فوق النار، يأكل بهدوء ويشرب من الزجاجة. وعندما فرغ نهض ولوَّح بيده قائلاً:

ـ حان الأوان لكي أواصل رحلتي.

ثم أضاف بعد لحظة:

ـ لن أدعم موقفكما بأية غزالة. ما زلتما في وضع أفضل. أمامكما الفرصة، إذا لم يكن غداً فبعد الغد. أمَّا أنا فأمامي عمل والتزامات!

جلس إلى المقود. أدار المفتاح وداس على البنزين.

(٨)

في اليوم التالي بدآ رحلتهما مبكراً. طافا الروابي وإكتسحا السهول والأودية. وعندما إرتفعت الشمس لجآ إلى ظلِّ سدرة ضخمة في وادٍ عميق.

قال مرزوق:
- إن الغزلان لا تظهر إلَّا بعد حلول الأصيل.

كان ميمون يهمُّ بفتح علب السردين تهيئاً للإفطار عندما أبصر غزالتين تهبطان الوادي. تناول البندقية وأسرع يطلق النار.

صاح مرزوق:
- لقد أخطأت. لقد تسرَّعت. هيَّا إلى السيارة وأعطني البندقية.

إنطلقا خلف الغزالتين عبر الوادي الكبير المغطى بالأحجار. لم تستمر المطاردة طويلاً.

أدرك التعب غزالة كبيرة يبدو من بطنها المنفوش أنها حبلى، فلجأت إلى شجرة سدر هائلة وسط الوادي وإندسَّت خلفها. أمَّا الغزال الثاني فقد قطع الوادي إلى الجانب الآخر وبدأ يتسلَّق المرتفع المؤدي إلى العراء.

قفز مرزوق خلف الغزالة الحبلى ولكنها دارت حول الشجرة الهائلة إلى الجانب الآخر.

صاح مرزوق وقد فقد أعصابه:
- إعترضْ لها الطريق من جانبك. إنها خبيثة جداً.

وعندما اعترضها ميمون من الجهة الأخرى إلتقى بها مرزوق وجهاً لوجه: كانت دقيقة الملامح، في عينيها سحر وتوسل وشقاء غريب لم يتعوَّد أن يراه في عيون الحيوان. وقفت لحظات قبالته قبل أن يطلق عليها النار. أصابتها الطلقة في رقبتها. إنكفأت على رأسها، ثمَّ نهضت ومشت بضع خطوات. سقطت مرة أخرى وأصدرت صوتاً غريباً، أشبه بالخوار في البداية، ثم ثغاء حاد أليم متواصل. وفي لحظة إنبثق من جوفها الجنين. لحظتها رأى مرزوق في عينيها دمعة كبيرة، مدَّت رقبتها وشرعت تلثم الجنين بلسانها وعندما عجزت أن تنهض، رقدت بجواره، ثم إنتفضت في حركة يائسة وماتت.

صاح ميمون في إحتجاج:
- لقد ماتت. إنها جيفة الآن.

صرخ فيه مرزوق:

- ولماذا لم تذبحها؟ إن السكين في يدك أنت.

بعد لحظة صمت، قال ميمون كالمعتذر:

- معك حق. ولكن منظرها.. هذا المنظر.. هذا الجنين.. هذا فظيع...

إقترب مرزوق من الجنين فاكتشف أنه يتحرك.

أشاح بوجهه وإنطلق إلى السيارة بعد أن تقيأ في الطريق. فوق المرتفع رأى الغزال، الذي قطع الوادي، يقف وينظر إليهما بإصرار.

(٩)

بعد العشاء تلحَّفا بالبطاطين ولجآ للنوم. تساءل ميمون:

- لو ذبحتها هل تستطيع أن تأكل لحمها؟

أجاب مرزوق بعد لحظة صمت:

- لا أعرف. وأنت؟

- لا أعرف أيضاً. ربما لن أستطيع. إن المنظر فظيع.

- لم أخبرك بشيء وقتها.

- ماذا؟

- لقد رأيت الغزال الأب يقف فوق المرتفع، ينظر إلينا بإصرار وأسى.

- لا! ولماذا لم تخبرني؟

- لأنني خشيت أن تصرَّ على مطاردته!

ساد الصمت طويلاً قبل أن يهمس ميمون:

- بالتأكيد لن أفعل.

- تصبح على خير.

(١٠)

حاول مرزوق أن ينام ولكن الصوت الغريب الذي أطلقته الأم ظلَّ يطنُّ

في رأسه، ودمعتها الكبيرة لا تغادر مخيلته. وعندما أغفى جاءه الشيخ غوما. توسّل أن يغفر له. ولكن الشيخ لم يجبْ. قال له بضراعة:

- لم أكن أعلم أنها حامل. إن صوتها يحطِّم رأسي الآن.. إغفرْ لي بالله.

ولكن الشيخ ظلَّ يداعب حبات مسبحته الطويلة وينظر في الفراغ.

عاد هو يلحُّ:

- سامحني بالله. لقد كذبت عليك. الغزلان في الصحراء ليست في أمان. لقد خنتك وخنت الأمانة إغفر لي!

ولكن ملامح الشيخ ظلَّت جامدة كالصخر.

وفي النهاية نهض الشيخ وذهب لينام دون أن ينبس بكلمة.

(١١)

في الصباح قال مرزوق:

- الصداع. الصداع مرة أخرى.

ضحك ميمون كأنه نسي كل ما حدث بالأمس دفعةً واحدةً:

- ولكنك لم تشرب نبيذاً البارحة فمن أين الصداع؟

قال مرزوق:

- لقد شربت ما هو أسوأ من النبيذ. إن صوت تلك الغزالة اللعينة ما زال يطنُّ في أذني ويحطم رأسي.

شرعا يحضران الأشياء ويلقيان بالبطاطين والمعدات داخل السيارة عندما قال ميمون:

- إن للغزلان أرواحاً شريرة. أَلَمْ تسمع بذلك المغامر من جبل الحساونة الذي كان يصطاد الغزلان قطعاناً كاملة ويتاجر بها مع شركات النفط وتجار الشمال. لقد أُصيب بمرض غريب. ظلَّ يثغو كالغزلان ويشكو من الأشباح،

وفي النهاية وجدوه منتحراً في بيته. حدث ذلك قبل سنتين.

قال مرزوق كأنه لم يسمع قصة ميمون.

- أعتقد أن من الواجب أن نعود إلى الواحة.

- الواحة؟ وماذا عن الصيد؟ ماذا عن الغزلان؟ لا أستطيع أن أعود خائباً للأطفال.

صمت لحظة ثم أضاف:

- هل أزعجتك قصتي؟

- أية قصة؟

- قصة ذلك الرجل من جبل الحساونة.

قال مرزوق وهو يجلس في السيارة:

- آه، لقد سمعتها.

إنطلقت اللاندروفر.

في الضحى تصاعد لهب الشمس وغرق كل شيء في السراب الفضّي.

بعد ساعات إضطر أن يوقف السيارة ويملأ جهاز تبريد المحرك بالماء. قال وهو يمسح العرق عن جبينه:

- يا له من قيظ! هذا يوم أسوأ من أيام الصيف.

ثم عاد إلى المقود وداس على البنزين.

ساد الصمت بينهما حتى انطلقت غزالة أمام اللاندروفر فجأة وشرعت تتقافز كالسهم الطائر تظهر وتختفي في بحر السراب الذي يغمر كل شيء. أطلق ميمون اللاندروفر خلفها. أنهكها بالمطاردة وضاقت المسافة بينها وبين السيارة فهيّأ مرزوق بندقيته، ولكن الغزالة إنعطفت بسرعة خارقة يساراً وإختفت. إنعطف ميمون بالمقود خلفها، و.. بعد لحظات طارت السيارة في الهواء مسافة ثم سقطت في المنخفض. إرتطمت بالأرض بعنف فاختلَّ التوازن. إنقلبت، ثم تدحرجت عدة مرات.

مرَّ زمن قبل أن يجد مرزوق نفسه ملقىً خارج السيارة. إستردَّ وعيه

فتحسس أطرافه، كانت ملابسه مليئة بالدماء ولكن وجد نفسه قادراً على المشي. زحف على بطنه في البداية، ثم مشى على قدميه بمساعدة يديه حتى بلغ الوادي العميق. حيث تقف السيارة مقلوبة على رأسها. صاح بأعلى صوته:

- ميمون. ميمون. ميمون!

لم يجبه أحد. سكون رهيب لا تخرقه إلّا قطرات الماء والبنزين والزيوت التي تقطر من أحشاء اللاندروفر المحطمة.

إقترب من الهيكل البشع فلم ير من ميمون سوى رأسه وقد سَحَق طرفُ الباب رقبته. عيناه جاحظتان تنظران في الفراغ والدمُ يسيل من تحت الهيكل المقلوب ويختلط بالزيوت السائلة والنبيذ الأحمر.

حرَّك الرأس قليلاً وصاح كالمجنون:

- ميمون. أنت حي يا ميمون! أنت حي!

حاول أن يعدِّل من وضع اللاندروفر المقلوب ولكنها كانت ثقيلة.

تفقَّد جراحه وجلس إلى جوار رأس ميمون يتأمله في ذهول كالغيبوبة.

(١٢)

حمل غالون الماء فقط وانطلق.

الشمس ما زالت ترسل اللهب، والأرض الرامضة تنفخ الصهد والسراب.

مشى حتى المساء.

شرب قليلاً من الماء واستلقى على ظهره. غفا.

في تلك الإغفاءة رأى الغزالة المسكينة: دمعتها كبيرة، وصوتها ليس كأصوات الغزلان. إنها تتكلم الآن.

نهض عند منتصف الليل. أطلَّ قمر أحمر. هذا ينذر بالقيظ غداً.

تحامل على نفسه وقرر أن يواصل في الليل.

المسافة لن يقطعها في أقل من عشرة أيـام على الأقدام والمـاء يكفي ليومين فقط إذا إستمرَّ جحيم الخريف المفاجىء. اللَّهم إلاّ إذا رزق الله بعابر سبيل، أو مغامر! هكذا فكر.

(١٣)

إنتهى الماء منذ يومين ولا من عابر سبيل، ولا ظل لمغامر. يا لسـوء الحظ! لم يعد يرى تماماً منذ أمس. واليوم بدأ يزحف على يديه وقدميه منذ الصباح.

عند منتصف النهار لم يعد يستطيع الإستمرار في الزحف أكثر. رفع رأسه فتهيأ له الشيخ غوما. يقف هناك بجلال يمسك مسبحته ينظر إليه ولا يتكلم. صاح بأعلى ما تبقى له من صوت:

ـ يا شيخ غوما. إغفر لي. إغفر لي!

ولكن الشيخ لم يجب.

زحف قليلاً إلى الأمام ولكن الشيخ إختفى.

إنكفأ على وجهه في يأس فامتلأ فمه بالتراب الرامض كالنار.

جمع قواه ورفع رأسه مرة أخرى... رأى شيخاً يراقص السراب ويقترب نحوه. حاول أن يركز كل قواه في عينيه. لا. إنه ليس خيالاً. إنه هو نفسه. ذلك الغزال الأب الذي وقف ينظر إليهما مع ميمون من قمة المرتفع. إنه يقترب.. ويقترب.. ويقترب. في عينه بريق ووعيد.

وارسو

٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٨٥

الأب والأبن

«إلى آده إبراهيم الكوني»

(١)

بلغ إثنى عشر عاماً، فقرر الأب أن يأخذه معه للصيد لأول مرة. جاءت الأم بحجاب وعلّقته في رقبته وتمتمت بآيات القرآن والتعاويذ. ثم قبّلته في رأسه ووقفت تراقب الأب وهو يجلسه على المهري خلف السرج.

وقفت طويلاً ملتحفة بردائها الأسود الكبير تراقب المهري وهو يبتعد حتى ابتلعه الخلاء الذي يمتد حتى نهاية الدنيا، حتى نهاية الصحراء الكبرى حيث تعانق البحر عند سواحل الشمال البعيد.

(٢)

هبط المساء فأتى الأب بالحطب. أشعل النار وبدأ في تحضير العشاء. عجن الدقيق وألقى به في خضم الرمل الملتهب الذي خلّفته النار بعد أن أزاح الجمر جانباً. تناول وعاء الشاي ووضعه فوق الجمر. تساءل وهو ينهض ويتناول جراباً مليئاً بحبوب الشعير:

ـ سوف تتعلم صيد الغزلان. هل تحب أن تتعلم صيد الغزلان؟

قال الطفل الذي ظلّ يراقب الأب طوال الوقت:

ـ لا أعرف.

بسط قطعة قماش أمام الجمل وصبَّ نصف الجراب. شرع الجمل يأكل بنهم.

قال وهو يجلس بجوار موقد النار:

- يجب أن تعرف. الرجل الحقيقي هو الذي يعرف ماذا يريد. هل تحب الغزلان؟

- لا أدري. لم أر غزالاً حياً من قبل. رأيت أرنباً حياً فقط. أتذكر ذلك الأرنب الصغير الذي اصطدته في وادي الجعيفري ثم هرب!

ضحك الأب وقال بمرح:

- طبيعي أن يهرب. الغزال أيضاً يفعل ذلك. ولذلك لم يحدث أن رأيته حياً. لم أستطع طوال حياتي أن أظفر بغزال حيّ. وحتى لو حدث وقبضت على غزال حيّ فإنه سيهرب يوماً ما. أو.. يموت.

- لماذ يا أبي يموت؟

- لأنه لا يستطيع أن يعيش وحيداً بين الناس، بعيداً عن الصحراء والخلاء وبقية الغزلان. ولذلك يهرب وإذا لم يستطع فإنه يموت من فرط الحزن. هكذا خلق الله الغزلان.

فكَّر الطفل لحظات ثم قال وهو يهرش رأسه:

- أتدري يا أبي؟ إن للغزال عينين جميلتين جداً. لقد تأملت تلك الغزالة التي اصطدتها آخر مرة.

- آه. هذا يعني أنك تحب الغزلان. عليك أن تحب الغزلان إذا أردت أن تصطادها.

- لماذا يا أبي؟

- لأن الرجل الذي لا يحب الغزلان لن يصطادها أبداً.

ساد صمت قصير قبل أن يتساءل الطفل:

- ولكن لماذا يا أبي؟

ـ لا أعرف. ولكن أذكر أن جدك عندما أخذني معه للحرب لأول مرة قال لي: «عليك أن تحب أعداءك وتشفق عليهم، لأنك لن تستطيع أن تنتصر عليهم إذا لم تحبهم وتشفق عليهم»، ربما كان في الأمر سرّاً بالنسبة للغزال أيضاً.

ساد الصمت مرة أخرى قبل أن يتساءل الطفل:

ـ ولكن الغزال ليس عدواً يا أبي.

ـ معك حق. ولذلك فهو أحق بالمحبة والشفقة.

سحب الخبز من أحشاء الرمل الرامض وبدأ يغسله بالماء. قطعه بالسكين وطرحه على الجراب الصوفي وقال وهو يتناول قطعة:

ـ غداً سنمارس بعض التمرينات الإضافية على البندقية قبل السفر. لذا يجب أن تنام مبكراً. أمامنا طريق طويل حتى نبلغ سهول الحمادة الحمراء.

قال الطفل باحتجاج:

ـ ألن تسمعني ولو حكاية واحدة قبل النوم؟

أجاب الأب بعد تردد:

ـ حسناً. ولكن حكاية واحدة فقط.

(٣)

إستيقظ الأب عند الفجر.

أطلق سراح المهري الذي لجأ إلى شعبة صغيرة مكتظة بالأشجار الصحراوية. أوقد النار وشرع يحضِّر الشاي. حاول إيقاظ الطفل الذي همهم بكلمات غير مفهومة وإستمر يغطُّ في السبات. ملأ كوب الشاي بالماء ودلقه على رأسه: إنتفض الطفل وقفز من الفراش. فرك عينيه وقال بإحتجاج:

ـ ولكن الدنيا ما تزال ظلاماً!

قدَّم له كوب الشاي متوَّجاً بالرغوة وقطعة من خبز البارحة. قال بهدوء:

ـ إنه الفجر. الرجال تستيقظ عند الفجر. لم تعد طفلاً.

صمت لحظة ثم أضاف:

- لقد تعودت أن تسهر حتى آخر الليل تسمع الحكايات، وتستيقظ بعد شروق الشمس كالنساء. هذا لا يليق بالرجال.

ثم نهض ومشى مسافة طويلة. أوقف حجراً مستطيلاً طويلاً في العراء ثمَّ عاد وسلّم البندقية للطفل قائلاً:

- ليس لدينا وقت نضيعه. وليس لدينا رصاص زائد أيضاً. عليك أن تصيب الهدف في المرة الأولى.

قلّب الطفل البندقية بين يديه ثم قال بتردد:

- ولكن الهدف بعيد والدنيا ما تزال ظلاماً.

- يجب أن تتعلم كيف تصيب الهدف في الظلام أيضاً. أنسب وقت لصيد الغزلان هو الفجر. إغسلْ وجهك بالماء!

عندما جثا الطفل على ركبتيه قال الأب:

- تذكَّر ما قلته لك دائماً. لا تضغطْ على الزناد إلَّا عندما تتأكد أن الفوهة تحجب الهدف تماماً.

بدأ الطفل يصوِّب.

قال الأب:

- حاذر أن ترتعش! ثبِّت يداك! توقف عن التنفس لحظة الضغط على الزناد!

إنبثق الدوي وابتلعه الخلاء الرهيب. ولكن الحجر ظل واقفاً. رصاصة طائشة.

قال الأب:

- لقد إرتعشت يداك! لقد رأيت ذلك. ليس لدينا رصاص نضيعه في الهواء. حاول مرة أخيرة.

بدأ العرق يتصبب من جبين الطفل برغم الفجر البارد.

عاد يصوِّب منطرحاً على بطنه.

- تذكر أن تتوقف عن التنفس!

إنبثق الدوي. إنشطر الحجر إلى نصفين.

نهض الطفل. قال في فرح:

- لقد قسمته نصفين.

- هذا حسن. الرجل الحقيقي هو الذي يقصم ظهر الهدف. لا يطلق النار إلَّا إذا كان متأكداً أن إصابته ستكون قاتلة. هذا ينطبق على الغزلان كما ينطبق على الأعداء! منظر الغزال فظيع وهو جريح. كما أن بإمكان العدو أن يسبب لك المتاعب إذا أخطأته ولم تصب منه مَقتلاً على الفور!

ثم شرع يعدّ للرحيل.

(٤)

بدت سهول الحمادة الحمراء الرمادية مكسوَّة بالأعشاب الخضراء برغم حلول الخريف. كانت أمطار الشتاء الماضي غزيرة والسيول إكتسحت الأودية والشعب وأعالي الجبال وجرفت الضحايا من الناس والمواشي. أخبره بذلك عابر سبيل في الشتاء الماضي.

قضى ليلة في وادٍ كبير مزدحم بأشجار الرتم وآثار الغزلان. وفي الصباح نهض عند الفجر وقطع الوادي الكبير إلى السهل المجاور للإستطلاع. رآه يعجُّ بقطيع هائل من الغزلان ترعى بإطمئنان. تابعها لحظات ثم عاد يوقظ الطفل. غسل له وجهه بالماء البارد وناوله البندقية وجرَّه من يده عبر الأرض الطينية المغطاة بالحصى وصخور متناثرة هنا وهناك.

فوق المرتفع المطلِّ على السهل رأى الطفل القطيع. رأى الغزلان حية تسعى لأول مرة.

فرك عينيه وعاد يتمتع بمشاهدة ذلك المخلوق العجيب.

لكزه الأب بمرفقه وهمس:

ـ هيًا. لا تضيع الوقت.
سدد الطفل فوهة البندقية بعد تردد طويل.
سمع الأب وهو يقول:
ـ تذكَّر ما قلته لك مراراً عند الضغط على الزناد.
إنبثق الدوي. ارتدَّ الصدى. فرَّ القطيع صانعاً بحوافره ضجيجاً هائلاً.

إنطلق الأب إلى قلب السهل وفي يده سكين. ظلَّ الطفل جاثماً فوق المرتفع محاولاً أن يدرك ماذا حدث. في ظلام الفجر رأى غزالة تنتفض.

(٥)

قال الأب وهو يسلخ الغزالة فوق فراش من أوراق الرتم:

ـ هذا نجاح كبير. ولكن الإصابة لم تكن دقيقة. كانت ما تزال تمشي على رجليها عندما أدركتها.

ـ ولكن ظلام الفجر يحجب الرؤية.
ـ كيف تصيبها إذنْ وهي تتقافز في الهواء كالسهم؟
ـ أهذا ممكن يا أبي؟
ـ طبعاً. كل شيء ممكن بالتدريب والتجريب والمحاولة.

فرغ من السلخ. علَّق الشاة في شجرة إثل لتجف. تناول عود رتم أخضر، غرز فيه قطع الكبد والأحشاء. شرع يشويها على نار هادئة عندما سمع الفحيح. التفت فرأى الأفعى وهي تزحف نحوه. تناول البندقية دون أن يتخلّى عن العود المطرَّز بالكبد والأحشاء. أطلق عليها بيد واحدة في نفس اللحظة التي قفزت فيها نحوه. أحس بوخز في يده كوخز الإبرة: لقد أخطأها. فأطلق مرة أخرى. مزقتها الرصاصة إلى أشلاء متناثرة.

ولكن الوخز ظل يؤلمه.
لقد لدغته.

أسرع إلى السكين وطفق يمزق يده. سال الدم وارتعب الطفل. قال في هلع:

ـ الدم يا أبي! الدم! ماذا تفعل؟

ـ هذا ضروري.

ـ هل لدغتك؟

ـ نعم. كان خطأي. لقد حاولت أن أصيبها بيد واحدة فارتعشت وأخطأتها. أعطني قطعة القماش من السرج.

جاء الطفل بقطعة القماش وقال الأب:

ـ هل رأيت ثمن إستهتاري؟ لأنني لم أصب منها مقتلاً منذ الطلقة الأولى فأصابتني.

بدأ يربط يده وذراعه حتى يمنع تسرب السم إلى القلب، قال دون أن يخفي قلقه:

ـ هيًا، حضر الأمتعة، يجب أن نرحل.

(٦)

جلس على السرج طوال بقية اليوم، وفي منتصف الليل بدأ يترنح. العرق يتصبب ويسيل على وجهه ويبلل عمامته الكبيرة. العطش بلغ ذروته. تناول الغالون وبلل ريقه بجرعة كبيرة.

إستيقظ الطفل من نعاسه وقال برعب:

ـ ولكنك قلت يا أبي أن الملدوغ لا ينبغي أن يشرب الماء!

ـ نعم. لا ينبغي أن يشرب الماء، ولا ينبغي أن يغفو أيضاً.

ثم أضاف كالمعتذر:

ـ ولكن جرعة واحدة فقط. العطش يعذّبني.

تذكّر عندما لدغته أفعى لأول مرة وهو طفل يرعى الأغنام في سهل مجاور للبيوت: عاد وأخبر جدته فسلخت رجله بالسكين، ثم أرسلت رجلاً من

الجيران ليأتي بديك من القبائل المجاورة. أجبروه أن يأكل مخ الديك نيئاً، وطبخوا له شربة من لحمه، ثم سهر ثلاثة رجال بالتناوب فوق رأسه يمزقون وجهه بالصفعات كلما حاول أن يغفو. سهر ثلاثة أيام متتالية دون أن يذوق طعماً للإغفاء لحظة واحدة، وفي اليوم الرابع تقهقرت الحمَّى ووقف على قدميه.

ولكن اليوم لا أثر للديك ولا وجود لرجال يتناوبون عليه لكي لا يغفو أو يشرب الماء. غفا مرتين وهو جالس فوق السرج، وشرب جرعة كبيرة من الماء، والحمّى في أوجها، والطريق إلى البيت ما يزال طويلاً. حاول أن يتشبث بالجلوس فوق السرج أطول فترة ممكنة. ولكنه انهار عند الفجر وسقط على الأرض. توقف المهري، وذعر الطفل. حاول أن يزحف إلى شجرة برية صغيرة ولكن قواه تخلّت عنه تماماً.

جاء الطفل لمساعدته ولكنه قال:

ـ أعطني الماء. أعطني غالون الماء.

ـ ولكنك قلت...

قاطعه بصوت متهدج:

ـ لا تضيع الوقت. أعطني الغالون.. لم أعد أستطيع..

جاء الطفل بالغالون..

شرب جرعات متتالية:

ـ لا فائدة. سأبقى هنا وتذهب أنت إلى البيت.

قال الطفل في فزع:

ـ لا لن أذهب إلى البيت وحدي. سوف تذهب معي..

ـ ستذهب وحدك، أنت رجل الآن. لقد اصطدت الغزالة في الطلقة الأولى. قلْ لأمك أنك اصطدتها في الطلقة الأولى...

إختنق صوته وأضاف:

ـ سوف تفرح كثيراً. سوف تفرح بك...

بدأ الطفل يبكي. قال بين دموعه:

ـ لا. لن تفرح إذا لم تأتِ معي.. سوف نذهب معاً.

ـ لا أستطيع. ستذهب وحدك، أنت رجل الآن.. عدني أنْ تتذكَّر ما قلته لك. إذا أطلقت النار فيجب أن تصيب الهدف. وإذا أصبت الهدف...

صمت ولم يعد يقوى على الكلام. فأسرع الطفل يكمل الجملة:

ـ.. فتأكد أن تكون الإصابة قاتلة، ولكن...

ـ إذهب الآن. المهري يخبر الطريق جيداً، سيوصلك إلى...

ثم بدأ يغيب.

وقف الطفل والدموع تنهمر على وجهه. جثا على ركبتيه وبكى بصوت مسموع.

بعد لحظات صاح وهو ينشج:

ـ لن أتركك هنا وحدك. أبي.. أبي. يجب أن تنهض...

ولكن الرجل لم يجب.

بدأ الطفل يهزَّه بعنفٍ ويردد:

ـ لن أتركك وحدك هنا. سنذهب معاً.. سوف نذهب لصيد الغزلان مرة أخرى. سوف تعلمني كيف أصيب غزالة تتقافز في الهواء. سوف أصيبها في المرة الأولى. إنني أعدك بذلك.. هيا إنهض، يجب أن نذهب...

ولكن الجسد ظل هامداً بلا حراك.

عند شروق الشمس أطلَّ على الوادي الكبير حيث تنتصب خيمة رمادية وحيدة. في المدخل رأى أمه تقف ملتحفة بردائها الأسود الكبير.

غطى وجهه بذراعه وبكى بصوت مسموع.

وارسو

٨ ـ ٦ ـ ١٩٨٥

الطائر المقدّس

أو (شجرة الرتم)

﴿.. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، فدلاّهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

القرآن الكريم

سورة الأعراف الآيات من ١٩ إلى ٢٢

«فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان».

الكتاب المقدس العهد القديم «سفر التكوين» الإصحاح الثالث

بعد شتاء صارم وأمطار غزيرة هجم الربيع مبكراً هذا العام.

هدأت الرياح الشمالية الباردة واستقرّت الشمس في قلب السماء أياماً متتالية فتنفست الصحراء بالجمال والدفء والربيع. بدأ الإخضرار يغمر

الأعشاب الشاحبة المنتشرة في الأودية الصغيرة المنحدرة من الروابي الجبلية القاحلة فجاءت الطيور الصغيرة والكبيرة، البيضاء والملونة، وملأت الأودية السفلية الكبيرة حيث تتجمع أمطار الشتاء، بالغناء.

لم يمر أسبوع آخر حتى ازدهرت الأعشاب والأشجار البرية. إزدهرت حتى أشجار الرتم التي تكتظ بها الأودية والسهول المجاورة فتهيّأ أهالي الصحراء للبحث عن الأرانب البرية والغزلان والكمأ والحجل.

كان ميلود يدسُّ رأسه بين أغصان الرتم يستنشق عبير أزهارها الحادة العبقة عندما نادته غزالة:

- ميلود، أنظرْ! أنظر!

إلتفت ميلود فرأى غزالة وهي تهبط السفح نحو الوادي تهشُّ أغنامها التي إندفعت نحو الوادي الأخضر فاختلطت بأغنامه مكوِّنةً قطيعاً كبيراً. نظر إلى حيث تشير بإصبعها ولكنه لم يبصر شيئاً.

عادت تقول:

- أنظر إلى هناك، فوق الشجرة، يا له من طائر جميل! إستقرَّ فوق شجرة سدر شائكة هائلة وسط غابة الرتم، طائر جميل بالفعل!

أبيض ناصع، ضخم مقارنة مع طيور الصحراء، ذُو منقار طويل أقنى.

توقفت الطفلة إلى جواره وقالت من بين أنفاسها المتلاحقة:

- لم أر طائراً مثل هذا من قبل.

قال ميلود متأملاً وهو يتابع الطائر ببصره:

- إنه الطائر المقدس.. الطائر الأبيض المقدس. لقد حدثتني أمي عنه كثيراً في قصصها. إنه يظهر مرة واحدة في العمر للإنسان، ويهاجر دائماً وحيداً.

ظلَّ يتأمل الطائر مأخوذاً ولم يلحظ كيف التقطت غزالة حجراً ورمته في إتجاه الطائر الذي رفرف بجناحيه الكبيرين وحلّق فوق الوادي الذي يضجّ بحوافر القطيع وتناطح التيوس وثغاء الجديان.

قال ميلود غاضباً وهو يجذبها من طرف جلبابها:

ـ لماذا فعلتِ ذلك؟ هذا حرام. إنه طائر مقدس.

ـ مَنْ قال إنه مقدس؟ أمي لم تخبرني بذلك.

ـ أنت شيطانة!

ـ وأنت جبان. . .

ركض ميلود إلى أقرب ربوة ليتابع مشاهدة الطائر المقدس الذي اختفى خلف المرتفعات.

ولكن الطائر غاب عن الأنظار. مَكَث فوق الربوة لحظات يحدِّق في الأفق والفراغ ثمَّ يئس وعاد إلى الوادي. بحث عن غزالة في غابة الرتم والأعشاب الكثيفة حتى رآها مستلقية على ظهرها تحت رتمة تزدحم الزهور على أغصانها الرقيقة الطويلة، وقد انحسر طرف جلبابها عن ساقيها تتسلّى بمراقبة معزة تترنَّح أمامها!

وقف فوق رأسها وقال بغضب:

ـ لماذا طردت طائر الجنة المقدس؟ سوف يعاقبك الله على ذلك.

رمقته بنظرة بطيئة غائبة، ثم عادت ترقب المعزة وهي تترنَّح وتتعثر وتسقط ثم تقوم على ساقيها وتتقدم بضع خطوات متعثرة أخرى فتسقط من جديد.

جلس بجوارها وشرع يرقب المعزة.

بعد لحظات تساءلت وهي ما زالت مستلقية على ظهرها وساقاها بارزان حتى الفخذين:

ـ أتعرف ما بها؟

ـ لا.

ـ لقد أكلت أوراق الرتم.

ـ آه. . مسكينة. أوراق الرتم قاتلة. أمي قالت ذلك.

صمت لحظات ثم سأل باشفاق:

ـ هل ستموت؟

ـ لا.

ـ ولكن أوراق الرتم قاتلة.

ـ ليست قاتلة.

ـ كيف عرفت؟.

ـ لأني جرَّبتها.

ـ كذابة!

ـ بل جرَّبتها وسأجربها الآن أمامك.

ـ لا. لا تقتربي من الرتم، إنها شجرة لا تؤكل، حرام، أوراقها قاتلة.. مسمومة! أمي تقول ذلك دائماً.

نهضت واقتطفت الأغصان الطويلة المغطاة بزهور بيضاء حادة الرائحة وقالت وهي تلوكها:

ـ أمي تقول، أمي قالت. أنت لا تعرف إلاَّ ما قالته أمك. أنا أصغر منك وأعرف أكثر منك.

قال بإستنكار وهو يراقبها تمضغ أوراق الرتم:

ـ كذابة. عمري أحد عشر عاماً فقط.

ـ وأنا عشرة.

ـ كذابة!

ـ اسأل أمي.

إستمرت تلوك الرتم وهي تنظر إليه وتبتسم في تحدّ. قالت ضاحكة:

ـ أتعرف بماذا أشعر الآن؟

ظل يتأملها بفضول ولم يجب.

ـ أشعر أني خفيفة كالريشة، أستطيع أن أحلِّق في الفضاء كالطيور، والسماء قريبة جداً من الأرض.. و.. ملونة.. كل شيء ملون ومزركش وجميل.. حتى أنت!

أعقبت ذلك بضحكة طويلة رنانة، ثم قفزت بين الأعشاب ترقص

وتركض على رجل واحدة فتسقط مرة، ثم تنهض لتحاول من جديد. قال وهو يتابعها بذهول:

ـ أنتِ الآن كالمعزة!

أجابته بضحكة هازئة فأضاف:

ـ . . وسوف تموتين كالمعزة!

علا ضحكها وهي تقول بمرح:

ـ لن أموت. سوف ترى!

إستمرت تركض وترقص وتغني ثم اقتربت منه وقالت في إصرار:

ـ جرِّب، لماذا لا تجرب!

إقتطفت مجموعة من الأوراق الخضراء وقدَّمتها له. تراجع خطوتين وقال بهلع:

ـ لا. أخاف.

ـ مما تخاف؟ لقد رأيت بنفسك أنني لم أمت. أنا سعيدة وفرحة. ألا تريد أن ترى كل شيء ملوناً زاهياً وجميلاً كما. . كما في الحلم.

إبتلع ريقه بصعوبة وتمتم:

ـ أخاف. . إني. . أخا. . . ف.

تقدَّمت منه خطوتين ومدَّت له بأوراق الرتم وفي عينيها تصميم وعناد:

ـ لا تخفْ. هيًّا. . سوف نحلم معاً، ونرقص معاً ونرى الأشياء الملونة.

تراجع خطوات، تقدمت خطوات، و. . دسَّت الأوراق الخضراء المطرَّزة بالزهور الصغيرة البيضاء في فمه.

مرَّ بعض الوقت قبل أن يشعر بالخدر يتسلل إلى رأسه، يسلب إرادته، ويعطِّل عقله. . خدر لذيذ يزحف ببطء حتى وجد نفسه غارقاً في الحلم، وبدأ وزن جسمه يخفُّ حتى شعر أنه رشيق كالعصفور فأيقن أنه في الجنة فانتابته نوبة من الضحك.

ضحكت معه أيضاً، وطارا معاً يتقافزان بين الأعشاب كفراشتين،

يرقصان.. يرفعان عقيرتيهما بالغناء. ثمّ سقطا فوق النباتات البرية الكثيفة يلهثان. مرَّت لحظات قبل أن تقترب منه غزالة وتشرع في فكٍّ أزرار قميصه ثمّ سرواله. لم يدرك لماذا تفعل ذلك ولم يقاومها. نَـزَعت جلبابهـا فرأى جسمها عارياً.. زحفت نحوه وأطبقت على فمه بشفتيها، ثمَّ وجد نفسه يعتلي جسمهـا الجميل العـاري. لم يفكِّر في شيء. شعـر فقط أنه مـوجـود في الخيال، وأن الحلم اللذيذ قد ابتعد به عن الأرض مسافات طويلة جداً. إنه الآن في الجنّة الموعودة التي حدثته أمه عنها ولم يتصورها، وتمنى أن يستمر هذا الحال إلى الأبد.

إستمر ميلود يمارس هذا «الحلم» مع غزالة طوال الأيام التالية. يصحو مبكراً، يغسل وجهه ويهرع إلى الأغنام ليهشَّها إلى السهول المجاورة دون أن يتناول إفطاره المعتاد حتى دهشت الأم. يجلس هناك بين الأعشـاب ينتظر قدوم غزالة مع قطيعها. يقطفان أوراق الرتم، يرقصان، ويغنيان ويضحكان، ويمارسان الحلم والغيبوبة والخيال. حتى جاء ذلك اليوم الذي ضبطتهما فيه النسوة فجأة.

كانا قد نزعا ملابسهما ورقد فوقها، ولم تمر لحظات حتى انتفض جسمها تحته بعنف، نهض فوجد نفسه مع النسوة وجهاً لوجه. عرف فيهنَّ وجه أمه التي وقفت بذهول وقد نزعت المفاجأة لسانها.

إنتهز الفرصة فتناول مـلابسه وهَـرَعَ يجري حتى تـوارى خلف الربـوة المطلّة على الوادي الأخضر.

لم يجرؤ على العودة للبيت حتى عندما هبط المساء. التجأ إلى شجرة رتم، حفر تحتها حفرة عميقة ونام وسطها طوال الليـل. كان نـوماً مـزعجاً متقطعاً تتخلله رؤى الذئاب والأفاعي. وفي الفجر لسعه برد الصحراء القاري فعاد إلى البيت، وتسلل داخل فراشه.

في الصباح لم تبادله أمه كلمة واحدة. أَلقى بتحية الصباح فلم ترد. إستمرت تمخض قربة الحليب بين يديها وترمقه بطرف عينها خلسة بنظرة إستنكار.

وعندما شرب الشاي ونهض يجمع القطيع قامت وقالت بوعيد:

- إنتظرْ حتى يعود أبوك، سوف أخبره بكل شيء.

هو على يقين من أنه لن يفلت من العقاب ولكنه انتظر غزالة في المراعي. جلس فوق الربوة يرقب القطيع في قلب الوادي، يصغي لشقشقة الطيور وطنين النحل، يحلم بالسعادة والخيال وغزالة ولكنه لم يقترب من الرتم. إنتظر حتى المغيب ولكن غزالة لم تأتِ. خاف ألَّا يتكرر ذلك الحلم العجيب مع غزالة فذهب إلى البيت والألم يعتصر قلبه.

عاد الوالد من رحلته إلى تشاد فأخبرته الأم. جلب له حلة مزركشة وحذاء من المطاط. وفي الصباح تناول السوط من جرابه وقال لميلود بهدوء:

- الآن سوف تنال العقاب، أنت تعرف ماذا فعلت؟

قال ميلود بإستسلام:

- نعم.

تناول حبلاً طويلاً ثم شَـرَعَ يوثق ميلود إلى عمود الخيمة المركزي، وتناول السوط وبدأ يهوي به على جسد الطفل الذي لم تمنعه لسعات السوط من أن يعلن:

- ولكني.. ولكني أريد أن أتزوجها.

توقف الأب لحظة ذاهلاً. همهم:

- تتزوجها يا زنديق! ألا تستحي؟!

وهوى بالسوط على جسد الطفل بعنف أكبر.

إستمر الطفل يردد.

- أحبها، سأتزوجها!.. سأتزوجها!

أثار ذلك الأب فازداد شراسة وازدادت ضرباته ضراوة ووحشية حتى بدأ الدم ينبثق من ظهر الطفل.

لحظتها تدخلت الأم وصرخت بأعلى صوتها:

- أوه يا ربي! أنت تريد أن تقتله!

وإندفعت وألقت بنفسها على جسد ميلود. توقف الأب وقال غاضباً وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه:

- إتركيني أربيه. هذا الكافر. هذا الزنديق!

نام في الفراش على بطنه قرابة الأسبوع وأمه تدهنْ له الجراح في ظهره بزيت الزيتون وبعض المراهم المستوردة من كانو.

وحتى عندما تماثل للشفاء وسمحوا له بالذهاب إلى المراعي جلس فوق الربوة وانتظر غزالة. ذهب على أمل أن يلتقي بها.. ولكنه لم يجدها. لم يتصور أنه لن يراها. لا يستطيع أن يتصور أن ذلك الحلم العجيب يمكن أن ينتهي هكذا بسرعة وبساطة. لا بدَّ أن يهجر الأرض ويغيب معها في تلك الرحلة الخيالية العجيبة. إنتظر حتى هبوط المساء ولكنها لم تأتِ. فقرر أن يذهب إلى بيتها. في مدخل الخيمة وجد أمها. صرخت فيه متوعدة:

- ميلود؟ ماذا تفعل هنا؟ إذهبْ.. إذهبْ أيها المجنون. سوف أخبر أباك.

وأخبرت الأب الذي سجنه حول العمود المركزي حتى الصباح. بعد الظهر أسرج الجمل وحلّ وثاقه من العمود قائلاً:

- هيًا. سوف ترحل إلى عمك في الواحة. هناك تستطيع أن تذهب إلى المدرسة. هذا أفضل من أن تجلب لنا الفضيحة والعار.

عند عمه غمره الحزن وأضرب عن الطعام ثلاثة أيام. في الليل ظلّ يهذي باسمها..

وفي اليوم الرابع تسلل إلى المطبخ وشرب زجاجة الكيروسين عازماً على الإنتحار.

عندما دخلت زوجة عمه المطبخ صرخت من فرط الرعب. وجدته عارياً. غارقاً في القيء، ووجهه أصفر كقطعة ليمون.

تجمهر الجيران وحملوه إلى المستوصف حيث أُجريت له عملية غسل المعدة. تماثل للشفاء فقال له عمه:

ـ لماذا تُعذِّب نفسك هكذا.. ما زلت صغيراً سوف تكبر وتنسىْ.

قال بإصرار مدهش:

ـ لا أريد أن أنسى، لا أريد!

ثم أَجهش بالبكاء. بكاء طويل مرير.

في المدرسة ضبطه المعلم وهو يرسم وجه غزالة. سأله بإستنكار:

ـ ما هذا؟

ـ غزالة.

ـ مَنْ هي غزالة هذه؟

قال ببراءة:

ـ غزالة، أريد أن أتزوجها.

تفحصه المعلم بدهشة ثم قال مؤنباً:

ـ أَلا تستحي؟ طفل في عمرك ويحلم بالزواج.

هجم على الكرّاسة وانتزع منها الورقة التي حاول أن يرسم فيها ملامح غزالة، مزّقها وألقى بالوريقات من النافذة.

منذ ذلك اليوم قرر أَلّا يعود إلى المدرسة.

يخرج في الصباح إلى المرتفع على الواحة ويجلس هناك حتى الظهر يحلم بغزالة وتلك اللحظات الساحرة التي قضاها معها في السهول الخضراء تحت أشجار الرتم العجيبة. يتسلّى احياناً بإحصاء قافلة السيارات الفرنسية التي تخرق الواحة وتصعد المرتفع في طابور طويل متجهة إلى تونس.

ولكن غيابه المستمر عن المدرسة إكتُشِف. وبّخه عمه فقرر الهرب نهائياً. تسلل من البيت ليلاً ومشى تاركاً الواحة خلفه.

مشى حتى تلاشى نباح الكلاب وأطلّ القمر الشاحب. توسَّد يده على قارعة الطريق وقرر أن ينام. نعس بعض الوقت فحلم بالأفاعي والذئاب.

لسعه برد الخريف فنهض وقرر أن يواصل مسيرته.

وصل عند الصباح فوجد المضارب مهجورة. رحل أهله ورحلت غزالة. ولم يبق خلفهم سوى الرماد القديم يتناثر هنا وهناك.

تفحَّص الآثار بعض الوقت ثمَّ اتجه نحو السهول المجاورة حيث كان يرعى الأغنام مع غزالة. ولكن السهل الأخضر كان قاحلاً. إختفتِ الأعشاب الخضراء وجفّت أغصان الرتم الساحرة. وقف عند شجرة الرتم التي أكل منها مع غزالة لأول مرة، تناول غصناً وضعه في فمه ولكنه تهشّم بين أسنانه كالحطب، كالخشب، كالعظام.. لقد غادرته الحياة. بصقه على الأرض وجلس يجول ببصره عبر الوادي الأجرد. حتى.. حتى رأى الطائر. نفس الطائر المقدس.. يرفرف بجناحيه الكبيرين على ارتفاع منخفض متجهاً نحو الشرق. إستمر يتابعه ببصره حتى اختفى. قال في نفسه: «إنني أراه للمرة الثانية. المرة الأولى تجلب السعادة. والمرة الثانية نذير شؤم».

جلس حتى منتصف النهار. ثم نهض ومشى نحو الشرق، في الإتجاه الذي اختفى فيه الطائر المقدس.

وارسو
١٦ - ٣ - ١٩٨٥

الحمّى

(١)

لم يكن شناني رجلاً يمكن أن يُطعَن في شرفه أو في سلوكه أبداً قبل أن يجيء ذلك اليوم. فهو يتيم الأب والأم. مات الأب منذ سنوات طويلة في الحرب مع الطليان ولا يذكر ذلك أحد في البلدة متى كان ذلك، ولكن أهل البلدة يذكرون جيداً عندما ماتت الأم. لقد جاء مع غروب الشمس وهبوط الظلام. أُخبر بالأمر فَهَرَعَ يذرع شوارع البلدة جرياً حتى ظنَّ الجميع أن الجنون قد أدركه.

إنطلقت خلفه مجموعة من شباب البلدة يحاصرونه من شارع إلى شارع، من زاوية إلى زاوية، من زقاق إلى زقاق، وحتى عندما أدركه خلف الله عالجه بقبضة يده فانهار خلف الله على الأرض وطلبوا له الإسعاف.

في النهاية استطاع شباب القرية محاصرته في زقاق ضيق.. شددوا عليه الخناق وجاءوا به «أسيراً» إلى البيت، ولا يدري أحد كيف فعلوا ذلك.

ظلَّ يبكي ثلاثة أيام بلا أكل، بلا نوم، دون أن يستطيع أحد من الذين يتناوبون عليه من أهل البلدة أن يغير في الأمر شيئاً.

تناول عمود الخيمة التي نُصِبَتْ للعزاء فآنهارت وشَرَعَ يضرب الأرض بالعمود وهو يبكي ويصرخ بصوت عالٍ مردداً كلمات وعبارات لم يسمعها أحد من قبل.

فلم يستطيع الأهالي أن يطلقوا الشباب ليغلقوا فمه كما فعلوا عندما انطلق يجوب الشوارع برغم إستنكارهم لما تفوَّه به من ألفاظٍ تنطق بالكفر وتمسُّ الذات الإلهية ذاتها. شرعوا يرددون «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اللّهم احفظنا»، يدكون رؤوسهم في محاجرهم، وخاصة النساء. في حين وقف الشباب مذهولين وكأنهم ينتظرون أمر «الكبار» لكي ينقضّوا على شناني ويدقوا عنقه مقابل وقاحته ضد الخالق. أمّا هو فقد استمرَّ يمطر شتائمه ضد الجميع دون أن يستثني أهل الأرض من أهل السماء.

إنصرف الجميع من حوله إلى بيوتهم بعد أن أحكموا الوثاق حوله إلى شجرة رهيبة تقف في قلب الطريق المؤدي إلى المدينة.

ظلَّ يئن ويشتم ويلعن الأرض والسماء طوال الليل وفي الصباح أدركه التعب فخارت قواه وإنكفأ على وجهه فبدا معلَّقاً ورأسه يعانق صدره كالمشنوق.

في الصباح بعد أن بدأت الشمس ترتفع خلف الجبل الأسطوري المهيب وشَرَعَتْ تغمر البلدة بأشعتها، أقبل الشيخ غوما وأطلق وثاقه بنفسه. سقط شناني على وجهه كالوحش، ولكن الشيخ مضى يداعب حبات المسبحة دون أن يلتفت لمصيره كأنه لا يكترث. لم يلحظ أحد إنفعاله من خلال أصابعه المرتعشة لأنه كان يخفيها من خلال مداعبة حبات المسبحة!

بالطبع كان ذلك بمثابة إعلان عن حصانة لن يجرؤ أحد بعدها أن يصيبه بسوء!

(٢)

مضت سنوات قبل أن يتزوج شناني مبروكة. ظلَّ يعمل ميكانيكياً في ورشة المواصلات طوال سنتين، وفي النصف الثاني من السنة الثالثة زفّوا له بُشرَى ميلاد طفله الأول.

منذ وفاة أمه اعتزل الناس، ولزم الصمت وغمره حزن لم يجد له معنى. وقد أصاب زوجته بالعدوى فأصبحت لا تتكلّم إلاّ نادراً منذ تزوجها، تحاذر

أن تلتقيَ صديقاتها، حتى شَرَعن يطلقن عليها لقب «زوجة شناني الغامض الذي سمح لنفسه أن يسبَّ الله عزّ وجلّ». ولكنها لا تكترث وتردد: «عين الحسود فيها عود».

وتمضي في حال سبيلها تتخطَّر في دلال. كانت جميلة من أجمل بنات البلدة. ولا يعرف أحد كيف خطر لها أن تتزوج شناني الصموت، الغامض المجهول الذي لم يعرف أحد سرّه منذ تطاول على الذات الإلهية عندما ماتت أمه!

كانت الفتيات تـرددن بصوت عـال: «ولله في خلقه شؤون»! ثمَّ لا تلبث الفتيات أن تتجمعن وتتهامسن كما تحب النساء أن يفعلن عندما تقدم إمرأة على إختطاف الرجل الذي يحلمن به.

ولكن مبروكة لا تهتم..
.. ولكن مبروكة لا تهتم أبداً..
متى كانت مبروكة تهتم؟!

يكفي أن تغمز بعينها وتشدَّ طرف لحافها الوردي وتمضي في حال سبيلها لكي تسمع آهات الشباب من خلفها.

أوه، يا لها من آهات!

ولكنهم جميعاً تافهون.. صاغرون.. كسالى، جبناء، يقيسون الأشياء بالمسطرة والفرجار. هكـذا كانت تقـول لنفسها وهـا هي ـ بعد عـام من الزواج ـ ذاهبة إلى العرّافة «سعدية» لتقرأ لها المستقبل!

(٣)

حدثت أشياء أخرى في بلدتنا قبل أن ينبثق دوي البارود في تلك الليلة الشتائية.

كان الشيخ غوما قد كبَّر لصلاة العشاء عندما سمع دوي الإطلاقة فظلَّت يـداه معلَّقتين في الهواء لحـظات. نقض صلاتـه وارتدى مـداسه الجلدي

وبرنوس الشتاء الأسود وانطلق يستطلع الأمر.

دوي البارود أيقظ البلدة كلها فخرج الرجال يحملون فوانيس الكيروسين تتبعهم نساؤهم. الضجيج أيقظ الأطفال فبدأوا يتقاطرون أيضاً..

أمّا الشباب فقد كانوا أول الحاضرين، حيث وقفوا في صف طويل يلحظون ما يحدث دون أن يجرؤ أحدهم على التدخل.

كان مهدي الغرنوق يصرخ بأعلى صوته وهو ينتفض بين أيدي ثلاثة رجال يشدّون يديه إلى الوراء:

- دعوني، إتركوني.. هذا المجرم. سوف أقتله، هذا المجرم! لا يجب أن يخدعكم! لقد خدعها! الإثم في بطنها! لقد خدعها! إسألوها! لقد اعترفت! هو الفاعل! سوف أقتله حتى لو عاد إلى بطن أمه!!

في ذلك الوقت كانت مجموعة رجال أخرى تتصارع مع شناني الجريح الذي بدا هائجاً كالثور. يعلو الزبد شفتيه، يسيل اللعاب من بين أسنانه، والدم يتدفق من كتفه الأيمن حيث أصابته الرصاصة. ولكن صوته الهائج كالخوار ينمُّ عن وعيد مكتوم.

في تلك اللحظة وصل الشيخ غوما فهدأ الضجيج إلاَّ صوت مهدي الغرنوق وخوار شناني.

أجالَ الشيخُ ببصره بينهما دون أن يتوقف عن مداعبة حبات مسبحته.

أعلن في صرامة موجِّهاً حديثه إلى مهدي الغرنوق:

- أطلقوه. أطلقوا الكلب!

تردد الرجال لحظات قبل أن يعتقوا الغرنوق من بين أيديهم. وقف الشيخ قبالته مباشرة ورفع سبابته في وجهه مهدداً.

حاول الغرنوق أن يقتحمه ويهجم على شناني الذي اشتدّ خواره فصفعه الشيخ بظهر يده اليمنى دون أن تكفّ يده اليسرى عن مداعبة حبات المسبحة في حين إنقض عليه ثلاثة رجال في وقت واحد. قال الشيخ بغضب:

ـ قليل أدب، تتهم الناس بالفواحش وتتجرأ وتطلق النار يا ابن الكلب!

شرع مهدي الغرنوق ينشج بالبكاء. التفت الشيخ إلى شنـاني وأشار بحركة من يده إلى الرجال أنْ يدخلوه إلى الدار. صرخ مهدي الغرنوق:

ـ متى أصبح الشيخ يبرر الزناة ويبرىء ذمة المتطاولين على الخالق؟

إرتعدت أصابع الشيخ حتى لم تعد المسبحة تستطيع إنقاذها من الرعشة، فرفع يده وهوى بها على وجه مهدي الغرنوق في صفعة هائلة.

ثم قال في لهجة حاسمة:

ـ أمّا ادعاؤك باعتدائه على الخالق فهذا ليس شأنك، وإذا حدث وزنى مع أختك فهذه مسألة أخرى يمكن التأكد منها..

ثم أمرهم أن يأخذوه إلى نقطة البوليس. أمّا شناني فقد حملوه إلى المستوصف لتضميد الجرح.

بعد يومين قام البوليس بإطلاق سراح الغرنوق وإعتقال شناني بتهمة مواقعة أخت الغرنوق.

قال الملازم عبد الكريم وهو يجلس إلى طاولة مستطيلة بدت طويلة جداً في الحجرة الصغيرة.

ـ لقد أكّدت الفتاة أنك عاشرتها أكثر من مرة أثناء غياب زوجتك فما رأيك؟

أجاب شناني بهدوء وهو ينظر إلى ذراعه الغارقة في الجبس المعلقة في رقبته:

ـ إنها تكذب!
ـ وما مصلحتها في ذلك؟
ـ لا أعرف.
ـ أكّد عدة شهود أنهم شاهدوها وهي تخرج من بيتك.
ـ ربما.

ـ حدث ذلك أثناء غياب زوجتك. . .

ـ ربما، ولكني لم أمسها أبداً.

نهض الملازم وقال بانفعال لأول مرة:

ـ ولكن ما مصلحتها في إخفاء الفاعل الحقيقي إذنْ؟

قال شناني بعد لحظة صمت:

ـ لا أدري والله!

عاد الملازم إلى الطاولة وكتب شيئاً في ملف أمامه، ثمَّ نهض وقال:

ـ سأصدر أمراً بإيقافك ثلاثة أيام رهن التحقيق.

تفحَّص ملامح شناني ليرى مدى تأثير كلامه على وجهه ثم أضاف:

ـ هذا هو القانون!

خرج الملازم ودخل رجل بوليس برتبة نائب عريف ليأخذه إلى غرفة أخرى صغيرة مظلمة مليئة بالرطوبة والهواء الفاسد يتوسطها حصير متآكل قذر وبطانية سوداء قديمة.

خرج نائب العريف وسحب الباب خلفه ولكن لم يغلقه بالمفتاح.

جلس شناني في الظلام يفكِّر فيما حدث. أكثر ما حيَّره إصرارها على أنه الفاعل برغم أنه لم يحدث أن عاملها كامرأة قط! شاهدها في الأفراح والأعراس والأعياد ومناسبات الختان وحتى في المآتم. رآها تزور زوجته أكثر من مرة، وجاءت إلى البيت أثناء غيابها أيضاً دون أن يخطر بباله أنها تنوي شيئاً. فلماذا هذا الادعاء المهول الكاذب؟ نعم. لم يحدث أن عاملها كإمرأة برغم. . . برغم أنها حاولت أن تؤكِّد لـه أنوثتها مراراً. تبادله نظرات ذات معنى. . وتتعمَّد أن تقع تحت بصره دائماً، أكثر من ذلك حدث أن غمزته غمزة واضحة. يا لها من فاجرة! نعم. ربما كان هذا هو السبب. تجاهلها فقررت الإنتقام. نامت مع رجل آخر وألصقت التهمة به.

نعم. نعم. المرأة مخلوق غامض مؤهل لإرتكاب أية جريمة!

هذه هي الحقيقة، ولكن هل يقول للملازم أنها راودته عن نفسها فرفض

فقررت الإنتقام؟ هل يقنع ذاك الملازم؟ ظل مستنداً إلى الجدار، يحدِّق في الظلام، ويده معلقة في رقبته حتى بدأ يغفو.

(٤)

إنتظر أن يستدعيه الملازم في اليوم الثالث ولكنه لم يفعل. إستمر ثلاثة أيام أخرى يعيش على علب السردين وقطع الخبز والماء، يحدِّق في الظلام. في اليوم الرابع خطر له أن يفتح الباب ويستنشق الهواء الطلق في الفناء وقبل أن ينفِّذ ما فكر به جاء نائب العريف وأغلق الباب بالمفتاح لأول مرة كأنه قرأ ما فكَّر به!

في اليوم السادس إستدعاه الملازم.

أجلسه على نفس الكرسي ووقف أمامه متكئاً على الطاولة. قال وهو يصلِّب يديه على صدره:

- لم أكنْ مذنباً في تمديد التوقيف. أحلت الملف إلى النيابة، والنيابة هي التي أمرت بالتمديد حتى...

توقف لحظة ثم أضاف وهو يضغط على كل كلمة:

- ... حتى تنجب أخت الغرنوق.

لم يعلِّق شناني بشيء. بدا أنه يحدِّق في الأرض ولكنه كان ينظر في الفراغ.

رفع رأسه وسأل:

- ومتى تنجب أخت الغرنوق؟

ذَرَعَ الملازم الغرفة الصغيرة جيئة وذهاباً. خطوتان نحو اليمين، وخطوتان نحو اليسار، ثم توقف فجأة وقال وقد علت شفتيه إبتسامة ذات معنى:

- أنت أدرى!

شناني لم يعلِّق. خطر له أن يقول للملازم ما فكَّر فيه منذ أيام ولكنه تراجع. سخافات. سيقول إنها سخافات ولن يصدقه. خطر له أن يقول إن

لديه طفلاً وزوجة ولكن تراجع أيضاً. عاد الملازم يقول:
- ولكن إطمئن. لقد قررت النيابة إطلاق سراحك بكفالة!

فتح الملازم ملفاً وأخرج ورقة قدّمها لشناني ثم أعلن:
- الكفالة لا تعني بالطبع إطلاق سراحك نهائياً. الأمر مرهون بما ستكشفه التحاليل بعد أن تنجب أخت الغرنوق، فأرجو ألّا أراك هنا بعد شهرين.

نهض شناني وقال للملازم بيقين وهو يحدِّق في عينيه مباشرة:
- لن أعود. لن أعود أبداً!

ثم مضى.

إستوقفه الملازم في الفناء وسأله بلهجة ذات معنى:
- أتعرف مَنْ كفلك؟
- لا.
- إنه الشيخ. الشيخ غوما بنفسه. لقد قال إنه متأكد من براءتك.

لم يعلّق شناني بكلمة. مضى خارجاً من فناء مركز البوليس عندما سمع الملازم يردد خلفه بصوت كالصراخ، كالاحتجاج كالوعيد:

- أتعرف لماذا؟ لأنه شيخ مخرف وغامض مثلك! إن الطيور على أشكالها تقع!

ثم أطلق قهقهة عالية.

في الطريق إلى البيت فكّر شناني: سبحان الله ما أغرب هؤلاء الناس. أنت غامض وغريب الأطوار طالما لا تدبِّرُ المكائد ولا تحترف صناعة الفتن، ولا تتقول ولا تنقل الكلام ولا تعادي أحداً.

وإذا فعلت كل ذلك، إذا فعلت ما يفعلون ومارست رذائل الخلق فأنت عادي ومستقيم، لن يتهموك بالغموض أو غرابة الأطوار ولن يلسعوا ظهرك بالسخرية!

سبحان الله! كل شيء مقلوب رأساً على عقب في هذه الدنيا.

هكذا مضى شناني إلى بيته يحمل ذراعه المثقلة بالجبس.

فتح الباب الخارجي فاستقبلته مبروكة في فناء الدار. ربتت على كتفه بيدها المخضبة بالحنّاء فَغَزَت أنفه رائحة البخور في حين سمع صراخ الطفل في الداخل. أغلقت خلفه الباب الخارجي. تناول الطفل بيده الأخرى وجلس على البساط، توقّع أن يشاهد في عينيها شيئاً آخر، الإحتقار، أو الغضب، أو الكراهية مثلاً، ولكن نظرتها ظلت جامدة، هادئة لا تعبِّر عن شيء محدد. تساءلت وهي تطرح الرداء على رأسها:

ـ هل أعدُّ الشاي؟

هزَّ رأسه بالإيجاب وهو يعبث بشعر الطفل الذي كفَّ عن الصراخ ورقد في حجره.

قال وبصره معلّق في الفراغ وأصابعه تداعب رأس الطفل:

ـ لا أعتقد أنك تصدقين أن أفعل أمراً كهذا.. أليس كذلك؟

مرَّت لحظات قبل أن تهزّ رأسها علامة النفي.

ولكنه ظلّ يحدّق في الفراغ دون أن يلحظ حركة رأسها، إستمر يداعب رأس الطفل الذي غفا في حجره حتى هاجمه النعاس بدوره قبل أن يتناول الدور الأول من الشاي.

(٥)

في بيت الغرنوق علا الصياح والصراخ وكثر الحرج. لم تنطلق زغرودة واحدة برغم أن طفلاً قد نزل الأرض. ولكن لأنه طفل مجهول الأب فقد خرست الزغاريد وماتت الفرحة.

أخت الغرنوق أنجبت طفلاً ذَكَراً فبدأت مراسم التحاليل. تمَّ إستدعاء شناني إلى المستوصف لأخذ عينات الدم والبول وأشياء أخرى.

قضى هناك يوماً كاملاً. ثم قالوا له أن التحاليل ستُرسَل لمختبرات المدينة وعليه ألاّ ينتظر النتيجة قبل أسبوع.

في الطريق إلى البيت إلتقى بالشيخ غوما. رآه أمامه فجأة فلم يستطيع أن

يتحاشاه. مدّ له الشيخ يده فرأى مسبحته الطويلة معلّقة بين أصابعه فعرف أنه عائد من الجامع. يأخذ الشيخ المسبحة الطويلة فقط عندما يذهب إلى الجامع للصلاة وتلاوة آيات القرآن.

قال الشيخ:

- الصبر. الصبر. ليكنْ الله في عونك.

ثم همَّ بأن يمضي عندما استوقفه شناني وسأله في ضراعة:

- قلْ لي يا شيخ غوما. هل حقاً اعتديت لا سمح الله على الذات الإلهية بـ... في ذلك اليوم عندما ماتت أمي؟

لم يستطيع أن ينطق بكلمة «شتيمة» فبلع ريقه عدة مرات محاولاً أن يبلل حلقه الجاف. ألقى الشيخ رأسه نحو الأرض ولم يجب في حين عاد شناني يقول في صوت متوسل وقد بدأ العرق يبلل جبينه:

- ولكني كنت أهذي. لم أعِ شيئاً مما قلته، ولا أذكر شيئاً. كانت الحمّى...

حاول أن يبتلع ريقه مرة أخرى، ولكن الشيخ قال في لهجة واثقة:

- الله لا يؤاخذ البشر بما يقولون ولكن بما يفعلون.

(٦)

بعد عشرة أيام استُدعي شناني إلى مركز البوليس. جاءته سيارة «لاندروفر» يقودها نائب العريف. نفس نائب العريف الذي كان سجّانه في المركز.

إستقبله الملازم بإبتسامة عريضة غامضة. وقبل أن يجلس على الكرسي مدَّ له الملازم يده قائلاً:

- تهانينا.. تقرير الطبيب من المدينة أثبت براءتك.

جلس قبالته على الكرسي ففصلت بينهما الطاولة المستطيلة الطويلة دون

أن تفارق الإبتسامة الغامضة شفتيه. أخرج من الملف ورقة كبيرة ممهورة بأختام كثيرة وقال:

- تقرير الطبيب يؤكِّد أنك لم تكن أباً لابن أخت الغرنوق، ولم تكن أباً لأحد في يوم من الأيام، ولن تكون أبداً في المستقبل!

ثم تحوَّلت الإبتسامة إلى ضحكة عالية. قهقهة شامتة شريرة. إلى هستيريا من الضحك.

نهض شناني واقفاً حتى سقط الكرسي، تمتم بدهشة:

- ماذا تقصد؟ كنت متأكداً أنني بريء. ولكن ماذا تقصد بـ...

قاطعه الملازم وهو ما يزال يغالب الضحك:

- أقصد أنك عاقر.. تقرير الطبيب يؤكد أنك عاقر! أَلا تفهم؟

تساءل شناني في بلاهة:

- عاقر! ما معنى عاقر؟!

قال الملازم كأنه يتلذَّذ بتعذيبه:

- عاقر معناه عقيم.. عقيم معناه لا ينجب أبداً. أَلا تفهم؟ لا ينجب أبداً! وإذا لم تصدقني فهذا تقرير الطبيب، إقرأ. إنه لك.. هديتي لك أيها الأبله!

ثمَّ انخرط في ضحكه الهستيري.

صرخ شناني:

- مستحيل. هذا مستحيل. لديَّ طفل.. أنا أب لطفل. أنت كذَّاب! الطبيب كذَّاب! أنا أب! أب!

تناول التقرير ونظر فيه ببلاهة ثم مزَّقه وألقى به في وجه الملازم وخرج.

لم يسمع حتى صياح الملازم خلفه وهو يردد: «يا لك من تيس كبير»!

لم يذهب إلى البيت مباشرة. مشى غرباً نحو المرتفعات الرملية التي تطلُّ على البلدة. جلس على ربوة ميمماً وجهه شطر الخلاء الممتد إلى الأبد حتى يلتحم بالسماء الزرقاء العارية من السحب.

راقب السراب وهو يتراقص فوق الأرض الرملية المنبسطة التي تترامى خلف سلسلة المرتفعات مباشرة.

هاجمته رغبة محمومة في أن ينطلق عبر هذا الخلاء الأبدي، يـركض خلف السراب حتى يدرك الأفق ويعانق السماء الزرقاء الصافية من السحب. يذهب إلى هناك يركض كالغزال، ينطلق كالسهم ولا يعود أبداً.

فهناك لن يرى الناس ولن يلتقي بهم وسوف يأمن شرهم لأن الخـلاء سوف يبتلعه ويسلِّمه إلى الأفق البعيد المجهـول الذي يسلِّمـه إلى السماء الزرقاء العارية من السحب حيث ترقد أمه التي ستمسح جبينه وتدسّـه في حجرها فيسلم من شر البشر إلى الأبد.

دخل البيت عند منتصف الليل. لم تكن نائمة. أنارت الغرفة وجلست القرفصاء في صحن الدار تساءلت:

ـ خير إنْ شاء الله.

جلس على البساط قبالتها وقال وهو يسند ظهره إلى الجدار:

ـ الشاي. أعدّي الشاي.

حدجته بنظرة دهشة قبل أن تنهض لتحضير عدة الشاي.

حاول أن يكون طبيعياً، ولكن التوتر ما زال يغلي في أعماقه.

أتت بالبوتاغاز وعدة الشاي. تساءلت وهي تولع نار البوتاغاز:

ـ ـ خير. هل ثبتت براءتك؟

ـ ثبتت ويا ليتها لم تثبت!

حدجته بنظرة دهشة طويلة قبل أن تقول:

ـ العفو يا رب. لماذا؟

قال بهدوء وبصره معلق في الفراغ:

ـ لأني عقيم. لأنه ثبت أني عاقر، عقيم لا أصلح لإنجاب الأبناء.

إنتفضت مستنكرة:

ـ أستغفر الله.

ولكن عينيها التقت عينـاه لأول مـرة.. حدَّق فيهـا طويـلاً حتى استقرّ

الحزن في عينيها وألقت برأسها في حجرها، وارتعشت أصابع يدها المتشبثة بوعاء الشاي. لم يكن في عينيه غضب أو وعيد، ولكن كانتا تطفحان بالحزن والعذاب.

همهم بعد لحظة صمت وقد غمره هدوء لم يتوقعه:

ـ مَنْ هو؟

راقب إضطراب أصابع يدها. ثمَّ ولّته ظهرها وانتفض كتفاها في حركة تشنج سريعة.

ندَّت عنها شهقة عميقة جريحة فأحسَّ بقلبه ينفطر شطرين.

غمغمت بجهد جهيد:

ـ هو.

صرخ لأول مرة:

ـ مَنْ هو، مَنْ؟

لم تجب مباشرة. علا نشيجها واشتدَّ إنفعالها. غمغمت مرة أخرى:

ـ هو. مهـ. . . الغرنوق!

ردد في ذهول:

ـ مهدي الغرنوق! مهدي الغرنوق!

بدأ يرتعد، هاجمته الحمَّى، أطرافه باردة ولكنه يسبح في العرق، ملابسه بدأت تبتل بالعرق، وهو لا يشعر إلّا بالقشعريرة والبرد.

مرَّ زمن قبل أن يستردَّ وعيه ويسيطر على نفسه. فتح عينيه فرأى أنها تتقرفص أمامه. هدأت قليلاً ولكنها ما زالت تنتفض. لا يدري كَمْ استغرقت غيبوبة الحمّى، طويلاً، لأن الشاي فوق النار يكاد ينضح. سمعها تقول:

ـ مضى عام على زواجنا فيئست من الذرية. فاستسلمت له. لقد حاول كثيراً قبل أن يفعل ذلك. سامحني بالله. لا أطلب سوى مغفرتك!

عادت تنشج بصوت مرتفع، وعادت الحمّى تكتسحه.

نهض ودخل غرفة النوم. عاد بعد لحظات يحمل البندقية. شَرَعَ

يمسحها بهدوء بكم جلبابه. أخرج رصاصات من جيبه دسَّها في قلب البندقية. وقف لحظات ممسكاً بها وهمَّ بأن يدخل غرفة النوم مرة أخرى.

قالت بهدوء وتصميم دون أن تتحرك من مكانها:

- لديَّ رجاء.. رجاء أخير.. تفعل ذلك معي أولاً.. لن أحتمل رؤيته...

رفعت رأسها فجأة ونظرت في عينيه. رأى التصميم فهزَّ رأسه بالموافقة. قبل أن تنكس رأسها قرأ الإمتنان في عينيها. إقترب منها فنكست رأسها أكثر. وضع فوهة البندقية فوق رأسها من الخلف فتوقفت عن التنفس. ساد صمت كالموت. شعر بالقشعريرة فقرر أن يضغط على الزناد قبل أن تهاجمه الحمّى. إنبثق الدوي. توقّع أن تنكفىء على وجهها إلى الأمام، ولكنها إنتفضت إلى الخلف إنتفاضة هائلة، فرأى عينيها الكبيرتين وقد هجرهما السواد واكتسحهما بياض شامل. سقط رأسها بين ركبتيه فتدفّق الدم على ركبتيه وقدميه. التفت نحو الطفل المفجوع الذي أيقظته الطلقة، تناوله بين يديه بلا وعي، بدأ يهدهده ويداعبه بين يديه حتى سكت وبدأ يغفو فوق كتفه. نسي نفسه لحظات لولا سرواله المبتلّ بالدم، وضع الطفل النائم بجوار أمه بهدوء. تناول البندقية وقرَّب فوهتها إلى رأس الطفل. في هذه اللحظة هاجمته الحمّى، شرعت البندقية تنتفض بسبب القشعريرة المفاجئة في صدغ الطفل حتى انعلقت الفوهة بلحم الطفل. إستيقظ الطفل ولكنه ضغط على الزناد في نفس اللحظة، أغمض عينيه فَخُيِّل إليه أنه سمع آهة أليمة طويلة، حاول أن يضع البندقية في جبينه ولكنه لم يستطع. كانت الحمّى في قمتها. جسده ينتفض كطائر مذبوح. خُيِّل إليه أنه يسمع الضجيج في الخارج، فتح عينيه ودسَّ فوهة البندقية في فمه وحاول أن يضغط بأصبعه على الزناد ولكن البندقية كانت أطول مما يجب، فلم يطلها بيده. الضجيج في الخارج يحتدّ، أو هكذا خُيِّل له، لمع في رأسه بريق مفاجيء برغم الحمى. داس على الزناد باصبع قدمه فانبثق الدوي... إنداحت الحمّى.. وهدأ الضجيج.

(٨)

قال الأهالي أن شناني إنتحر لأنه سمح لنفسه بالإعتداء على الذات الإلهية بالسباب فحقَّت عليه اللعنة. ولكن كَمْ كانت دهشتهم شديدة عندما فوجئوا في اليوم التالي بأن مهدي الغرنوق قد إنتحر أيضاً بعد أن قتل أخته وطفلها الرضيع.

وارسو

في: ١٨-١٢ ـ ١٩٨٥

الشهيد يريد أن يتكّلم

(١)

إستقرَّ بنا المطاف في وادي المغرغر بعد أن استطعنا إجتياز سلسلة جبال الجعيفري الوعرة. ساد الظلام فأرحنا المهريين اللذين شَرَعَا يجترَّان مباشرة. بحثنا عن مخبأ في غابة أشجار البطوم في الوادي المشهور، وقبل أن نتناول الفنجان الأول من دور الشاي الأخضر سمعنا صوته المكلوم:

- هيـ. . يـ. . يـ. . يه.

كان مأمون منهمكاً في إشعال نار مجاورة خاصة بإعداد الخبز. التفت نحوي وفي يده حزمة من الحطب كان يهمُّ بالقائها في النار عندما ارتدَّ صدى الصوت من جبل الجعيفري المهيب. راقبت مأمون وهو يلقي بالحطب المكدَّس بين يديه عندما سمعت الصوت يصيح مرة أخرى:

- هيـ. . يـ. . يـ. . يه!

لاحظت أن المهريين مستنفران وأن رقبتيهما الطويلتين تتحركان يساراً ويميناً، عبر الوادي الشاسع الطويل، تلتفتان نحو قمة الجبل الشاهق أحياناً، دون أن تفضحا قلقهما. . . كما تفعل قطعان الأغنام في الصحراء عادة عندما تشعر باقتراب الذئاب: إنها تنتصب في مكانها ساكنة هامدة، تعانق الخلاء ببصرها مستنفرة، متوترة تدوس الأرض بحوافرها في عصبية ولكنها عاجزة مستكينة، راضية بقدرها لا تتحرك. إنها تفقد القدرة على الحركة عندئذٍ، تهاجمها الذئاب وتفتك بالقطيع كله.

(٣)

عندما خلدنا للنوم قرب النار سمعنا صوته. صوت قريب هذه المرة. ليس صوتاً ولكنه حشرجة، لعثمة أو أي شيء يشبه ذلك!

- أع . . ع . . مو . . موضـ . . دور . . ر . . ر . . ر . . ف ـ . . فضـ . .

إنتفضت ملقياً بالغطاء جانباً، ولكن الغطاء كان مشتركاً مع مأمون هذه المرة. أَصغتُ السمع فلم أسمع شيئاً، حَدَّقتُ فلم أر شيئاً. لم يكن يبدو أن مأمون نائم. والجملان أيضاً كانا قد كفّا عن الاجترار وارتفعت رقبتاهما توتراً واستنفاراً.

أَجَلْتُ بصري عبر الوادي المجهول فلم أر في الظلام سوى رقبتي الجملين القلقتين وهما ترتفعان فتبدوان في ضوء النار الخافت متحركتين يميناً ويساراً كرقاب الثعابين في أواسط أفريقيا.

عدت أستلقي مستنداً إلى وسادة الرمل التي صنعها لي صديقي مأمون، ولكن النوم هجرني. ظللت أسترق السمع. صمتٌ . . صمت شامل مجهول لا يجترّ فيه الجملان، ولا يشخر فيه مأمون. الصمت الخفي الأبدي الذي ينعي الحياة، ويبشّر بالموت . . بالفناء في ذلك الليل الكئيب الذي يغيب فيه القمر. لم أكنْ أرى سوى قمم الجبال الوعرة المهيبة المطلّة على وادي المغرغر، ولكني ما لبثت أن غفوت. لا أدري كيف، ولكني غفوت . . غفوت بعمق . . ولم أستيقظ إلاّ على ضجيج معركة. لم أسمع مأمون يعارك بألفاظ نابية كما تلك الليلة. كان يشدّ الغطاء بشراسة لكي لا يسقط في جمر النار. أطراف الغطاء الصوفي تلتهمها نيران الجمر. غيبوبتي بعد النوم لم تسمح لي بأن أشاهد الطرف الآخر، ولكني أفقت تماماً بعد لحظات وشَرَعت أشد الغطاء ورائحة الصوف المحترق تغزو أنفي، جاهدت بشراسة مع مأمون ولكنه لم يكف عن السباب البذيء . .

إستسلمت لليأس عندما أبصرت مأمون يشرف على الجمر، وطرف الغطاء يجتاز الموقد الذي صنعناه فأدركت أن قوة الطرف الآخر خارقة!

صرخت في مأمون دون أن أدري وأنا أستسلم لليأس وأتخلّى عن المقاومة:

ـ تخلَّى له عن الغطاء، اترك الغطاء!

ولكن مأمون لم يستسلم، ظلّ يشدّ طرف الغطاء وحيداً، نهض على قدميه لمجرد أن ابتعدت ورأيت كيف غرق بقدم حافية وسط الجمر المتقد، واستغربت كيف أنه لم يصرخ، ولم يتألم، كل ما فعله في تلك اللحظة أنه قذف بسبة بذيئة لم أسمع مثلها منه من قبل واستمرَّ في شدِّ الطرف. وفجأة شاهدته وهو يسقط مستلقياً على ظهره والغطاء يغطيه.

أزاحه بحركة واحدة من يده عندما سمعنا صوته مرة أخرى باكياً، حزيناً، مستعطفاً هذه المرة:

ـ قلـ.. ت.. أ.. ب. م.. م.. ســ.. كـ.. و.. و.. و..

(٤)

لم يدعنا ننم طوال الليل. كانت حشرجته، صوته المخنوق، لغته المخنوقة تزعجنا، تقلقنا، تدعونا.. تريد أن تنطق.. أن تقول.. أن تصرِّح لنا بشيء ما لا نفهمه.. لا نعرفه. آهٍ من لغته المكتومة، العاجزة، الخفية. بسبب لغته.. بسبب صوته المخنوق لم ننم حتى الصباح

(٥)

قال الشيخ غوما وهو يلقي بالحطب إلى النار:

ـ سبحان الله، ما الذي اضطركما إلى المبيت في وادي المغرغر؟!

نهض مستنداً على عكَّازه المصنوع من شجر السدر، ولوَّح بسبابته في وجه مأمون غاضباً:

ـ أنت تعرف. فلماذا تقصد وادي المغرغر؟!

لم يعلِّق مأمون، ولكني لم أفهم شيئاً.

تقرفص الشيخ غوما قرب النار يغذّيها بالحطب. انبعثت أصوات غناء وزغاريـد من طرف الواحة عندما نطق الشيخ غوما:

- يـرحمه الله. أنـا نفسي لا أستطيـع أن أقضي ليلة واحدة في وادي المغرغر. بل لا أستطيع أن أمرَّ من هناك. لقد شنقوه هناك. أشرف «بالبو» حاكم طرابلس العسكري بنفسه على شنقه هناك.

قفزت من مكاني واقفاً دون أن أدري، صرخت:

- بالبو؟ مَنْ الذي شنقه بالبو في وادي المغرغر؟!

حدجني الشيخ غوما بنظرة صارمة، سقط بصري على مأمون فوجدتـه سـاكناً يلقي بـرأسه منكسـاً في حجره بـاستسلام. خجلت فعـدت أقتعد القرفصاء بجوار الشيخ الذي عاد يقول:

- لن أنسى ذلك أبداً، ولن أضطر للمرور على وادي المغرغر أبداً حتى لا أواجهه.. أستغفر الله. لقد اجتزنا وادي الجعيفري عام ٣٦ في طريقنا إلى الحبشة بعد إستسلام فزَّان. كانوا يدفعون بنا إلى الإشتراك في حرب الحبشة ويعدوننا بالجنَّة، يرأسنا الكابتن بورديللو عندما نزلنا وادي المغرغر في اليوم الأول من عيد الفطر.

أتت حفيدة الشيخ بمعدات الشاي الصيني الأخضر، ووضعتها أمامه، ولكن يبدو أنه لم ير شيئاً برغم أنه يصرُّ دائماً على تحضير الشاي بنفسه:

- إحتفلنا بالعيد كما ينبغي. صمنا طوال الطريق.. وكان يحق لنا أن نفطر.. أن نحتفل بالعيد والفـطر.. ولكن لا أعرف ولا أحـد يعرف حتى اليوم، ما الذي حدث لعقل الكابتن بورديللو عندما خطر له أن يسخر بنا، ربما بسبب الخمرة، تلك الزجاجات الخضراء التي كان يروق له أن يتناولها في الطريق. فيبدو مرحاً رائقاً، متسامحاً، غائباً عن الوجود أحياناً، وحانقاً غاضباً عنيفاً مثيراً للإشمئزاز أحياناً أخرى.

في ذلك اليوم أثاره إحتفالنا على ما يبدو فأقبل غاضباً كالعاصفة وركل الصحون والأواني رافساً الطعام واللحم والجبن بحذائه العسكري صائحاً:

ـــ«Aspetta, Aspetta» ذُهِلنا جميعاً، وحاولت إقناعه. نعم، حاولت بنفسي إقناعه وذكّرته بإتفاقية «محروقة» التي تبيح لنا الإحتفال بأعيادنا الدينية والتي جاءت موقعة من روما ومختومة بختم موسوليني نفسه، ولكنه لم يفهم. إستمرَّ ثائراً، هائجاً، يـدوس كل شيء بحذائه. لحـظتها أمسكت بي يـد محمد صالح... الله يرحمه.

أمسك الشيخ غوما بإناء الشاي، ملأه ودلق الماء داخل الإناء، ولكنه لم يضعه على النار. تابعتُ حركة أصابعه المترددة المرتعشة وهي تكتم أنفاس الأناء:

ـ شـرعنا نعـدُّ الجمال للرحيـل كما أمـر الكـابتن بـورديللو لمـواصلة الرحلة.. ولكننا فوجئنا بمحمد صالح يواجه الكابتن: «لو كنت كواليرا بحق فبإستطاعتك أن تواجهني، الشجاعة ليست أن ترفس صحون العيد، ولكن، هيا أطلق النار»!.

إرتعدت أصابع الشيخ غوما أكثر، ولكي يداري الرعشة، أسرع بدسِّ إناء الشاي في جمر النار. دسّ نيتيه بطرف لثامه وعاد يقول بهدوء:

ـ يا سبحان الله. لقد التفتُّ فرأيت محمد صالح يقف بلا سـلاح.. يتحدّى الكابتن بورديللو الذي يتحزَّم بمسدس وثـلاثة من جنـوده مدججين بالسلاح يقفون بجواره. الواقع أنهم لم يحركوا ساكناً طوال المعركة.. الحق يُقال.

في نيتي لحظتها أن أنقذ محمد صالح، أن أحيل بينه وبين الكـابتن، ولكن بورديللو الغاضب الحانق سرعان ما احتكم إلى السلاح. تناول مسدسه فجأة. وتوقعت أن يخرَّ محمد صالح مباشرة.. ولكن.. ولكنه ركض بسرعة الريح.. هل ركض؟ ربما قفز مرة واحدة، طار إلى بندقيته التي تبعد عدة أمتار وأطلق على الكابتن ثلاث رصاصات. سقط بورديللو ولكن جنوده لم يحركوا ساكناً، ربما لأن الصحراء لن تكون ملجأ لهم حتى لو سحقونا بالرشاشات. جاءني محمد صالح وهمس في أذني، هذا أذكره جيداً: «رد

بالك من مسكونة». ثم امتطى المهري وانطلق. لجأ إلى تونس. وبفضله لم نشارك في حرب الحبشة!

رفع رأسه وتنهَّد بصعوبة قائلاً:

ـ ولكن إتفاقية تبادل «المجرمين» بين الطليان والفرنسيس كانت قد أتت به بعد ثلاث سنوات، وقد جاء معه الجنرال بالبو بنفسه. فرأيته لأول مرة. ولم أعتقد أن الأمر سيكون بهذه البشاعة!

غرق الشيخ غوما في حزنه ودسَّ رأسه حتى كادت عمامته تلامس الأرض، ثم رفعه فجأة وقال محدِّقاً في وجهي:

ـ مسكونة حبيبته، خطيبته، فتاة يتيمة بلا أب، كان مُنتظَراً أن يتزوَّجها بعد عودته من الحبشة، ولكن هجرته إلى تونس لم تجعلها تيأس، إنتظرته.. وعندما علم الطليان بأمرها وجاءوا به مكبَّلاً بالأغلال جاءوا بها أيضاً.

صرختُ في وجه الشيخ غوما أول مرة في حياتي:

ـ ولكنه كلَّفك بها..

خطر لي لحظتها أن أضيف: «ولم تستطعْ أن تفي بالوعد» رأيت لثامه مبللاً فأدركت أنه يبكي. ساد الصمت لحظات تخرقه أغاني شباب الواحة وأهازيجهم ولكن الشيخ غوما ما لبث أن أعلن:

ـ كانوا يعرفون. لقد جاء الجنرال بالبو بنفسه ومعه محمد صالح. كنت وقتها مكبَّلاً أيضاً بالسوط في الليل والنهار ولا ذنب لي. أنت لا تعرف ماذا فعلوا؟ لقد أتوا بالمسكينة مسكونة وأشعلوا فيها النار بكوم كبير من الحطب.. حدث ذلك أمامه ورأسه في المشنقة، ألا تفهم؟!

دسَّ الشيخ غوما رأسه في حجره وشهق شهقة مكتومة حارقة عاجزة، وأردف:

ـ وتريدني أن أمر على وادي المغرغر؟!

عادت الأغاني والأهازيج الجماعية تنبعث من جديد في حين أسرع الشيخ يجرُّ إناء الشاي من قلب الجمر، قال بهدوء:

ـ لقد نبهت الجميع، محمد صالح يشكو دائماً، يريد أن يقول شيئاً لا أعرف ما هو. هو هناك الآن، في وادي المغرغر، الله يرحمه، وأنا هنا، برغم أني لم أستطع أن أَفي بوعدي بشأن مسكونة. فمَنْ وقتها يستطيع أن يقاوم قوات الجنرال بالبو؟ ولهذا تفهم لماذا أغرق النار التي أشعلتموها بالأحجار، لقد أحرقوها بالنار أمامه ورأسه في حبل المشنقة.

لن أمرَّ على وادي المغرغر أبداً!

إلتفت الشيخ غوما نحو مأمون وفي عينيه وعيد هذه المرة، ولكن مأمون ظلّ يحدِّق في رماد الجمر دون أن يعره إهتماماً.كأنه لا يرى ولا يسمع!

(٦)

ولكن السؤال الذي ظلَّ يقلقني هو: هل كان مأمون في ذلك اليوم يعلم بأمر محمد صالح أم لا يعلم؟.

الجدي الأسود

(١)

عبرنا «الحمادة الحمراء» في خمسة أيام، ولكن المطر لم ينقطع حتى أشرفنا على رمال فزّان. تراجع المطر والصقيع بمجرد أن توغلنا في صحراء الرمال وتلقفتنا هضاب ومرتفعات «زلّاف» الرملية الممتدة على مدى البصر تعلوها أشجار النخيل هنا وهناك.

توقفنا بجوار مرتفع رملي ساحر مكتظ بأشجار النخيل التي بدت كئيبة في فصل الشتاء. مرتفع يرتمي في المسافة الواقعة بين «براك» و «سبها».

في المساء قبل حلول ظلام الغروب أرحنا جملينا المتعبين برحلة يوم ونصف تواصلت بلا إنقطاع، وأسرعنا في البحث عن الحطب. أشعلنا ناراً هائلة في الهضبة الرملية مستجيرين بنخلة كثيفة. رياح «الحمادة الحمراء» الشمالية توقفت، ولكن شآبيب المطر إستمرّت تتساقط فتسارع رمال زلاف المتعطِّشة منذ آلاف السنين لامتصاصها مما ساعدنا في إشعال نارنا الهائلة التي تبدو للمسافر عن بعد كالحريق حسب خبرتنا في الصحراء.. كنا متعطشين إلى الدفء.. إلى إشعال نار هائلة كهذه بعد أن حرمتنا منها أمطار «الحمادة الحمراء» طوال الأيام الخمسة الماضية. ظللتُ ومأمون نحوم حول النار كالفراشة، نقترب فيحرقنا اللُّهب.. نبتعد فنشعر ببرد الأيام الخمسة فنعود نقترب من جديد. قفز مأمون يحضِّر خبز «الملال» كعادته بمجرد أن شعر بالدفء، قال بحيوية معلِّقاً على مفارقات السماء:

- ألا ترى؟ سبحان الله، يبدو أن السماء تصرُّ أن تهب الذين لا يحتاجون في حين تحرم المحتاجين. «الحمادة الحمراء» تضجُّ بالأمطار وحتى الثلوج في بعض الأحيان فوق الجبال، أمّا «زلّاف» العطشى، المحرومة دائماً فحصتها من الأمطار لا تتجاوز الشآبيب!

تناول الدقيق، دَلَق الماء في الإناء، وشرع يعجن كعادته، يحب عمله. يعشق أن يخبز الخبز في الصحراء، ولكن ما لبث أن قال:

- . . ولكن هكذا في الحياة أيضاً.

لم أُعقِّب، ولم أبادله كلمة واحدة منذ نزلنا رمال «زلّاف». أثاره صمتي فقال كمَنْ يحتجُّ ولكن في إستسلام:

- سبحان الله. ربما في ذلك حكمة لا نعلمها. . ولا يريدنا أن نعلمها!

شعرتُ بنبرة ألم دفين في احتجاجه ولكن لم أُعقِّب. شرعتُ أزيح الرمل المبلل بشآبيب المطر صانعاً لنفسي حفرة كبيرة، حفرة كالقبر تصلح لوقايتي من المطر والبرد. .

عندما ارتطمت يدي بالقلة، سمعت صوته المتألم:

- كل شيء يأتي من الشمال، حتى الأمطار، وما يزيد عن حاجة الشمال تتلقفه الصحراء العطشى من آلاف السنين. . تحصل على الشآبيب. . قلْ أنت العَالِمُ القادمُ من أوربا وأمريكا هل هذا عدل؟!

أردت أن أعلِّق على كلامه لأطفىء فجيعته المكتومة التي تفضحها نبرته، ولكني انشغلت في الإهتمام بالقلة، حفرت أكثر فرأيت قمتـها، شرعت أحفر حولها وقلبي يخفق بشدة، وأنفاسي تتقطع. حدَّثتني جدتي وأمي وأبي كثيراً، مراراً، عن قلل الفخار المليئة بالذهب التي عُثر عليها في الصحراء الكبرى. . ولكن دائماً يحدث شيء ما. . خطأ ما فتفسد. . تتفسخ. هذا ما أذكره ولكن ها هي أمامي الآن: كنز. . كنز حقيقي، أثري، تاريخي وسوف أصبح ثرياً، مليونيراً. الله كافأني على إخلاصي للصحراء!

أزحت من حولها الرمال، تلقَّفتها بين يديّ: متشققة، لونها رمادي قاتم.

لا شك أن مئات السنين حولت لونها إلى الرمادي. سمعت كثيراً في الصحراء الكبرى عن مثل هذه القلل الفخارية المحشوّة بالذهب، وها هي أمامي الآن.. بين يديّ. كنت مأخوذاً!

أفقتُ من غيبوبتي على صوت مأمون يصيح:

- يجب البحث عن جدي أسود فوراً. يا له من كنز!

إلتفتُ نحوه، وقلت بغضب:

- أي جدي أسود؟

- لا بدَّ من إراقة دم جدي أسود.. هذا ضروري.

تذكرت حكايات جدتي عن قلل الذهب وقلت لمأمون غاضباً ولكن بخيبة:

- من أين ستأتي بالجدي الأسود في هذا الخلاء؟

وضعت القلة بجوار النار. الخبز في رمل اللَّهب يكتوي، وإناء الشاي يغلي فوق الجمر، ويبدو أن سؤالي قد شغل مأمون.. أربكه فظلَّ واقفاً محاولاً أن يفكر.. ولكن مَنْ يستطيع أن يحتكم إلى العقل وقلة ذهب فخارية بجواره؟

إقترب مني في حين بدأت أزيح عن فتحتها الرمل مقترحاً:

- يجب التأكد من أنه ذهبٌ.

إقترب مأمون أكثر دون أن يبدي معارضة جدية، ولكنه أعلن بصوت خافت متردد:

- سنحاول البحث عن الجدي.. ربما عثرنا على راعي في «زلّاف»..

ولكني كنت قد أزحت الرمل حتى ارتطمت أصابعي بطبقة رمادية صلبة: كانت مغلقة!

حاولت أن أُزيحَ الطبقة الرمادية دون أن أنظر نحو مأمون. ولكن لم أستطع إختراقها: صلبة برغم أن القلة متشققة.. ربما بسبب العمر الطويل الذي قضته داخل أحشاء الرمال، في الصحراء!

تناولت السكين وبدأت أحاول إفتضاض بكارتها.. نزعَ الطبقة التي

تتلق القلة. جملي يترايد.. جنوني يمتدُّ، خيالي يتصور قطع الذهب القديمة المختلفة الأحجام، والأشكال، الأسطورية، السحرية التي فضَّلني الله وأرواحُ الصحراء بامتلاكها دون غيري. نعمة من الله.. سبحانك الله!

في تلك اللحظة خرقت السكين قلب القلة، فرأيتها... رأيته:

ذهب حقيقي يتلألأ.. يتراقص.. يعمي العين، يؤذي البصر، ولكنه ليس سبيكة، وليس قطعاً.. ولكنه يتلألأ يبهر البصر تحت ضوء النار الخافتة. إلتفتُّ نحو مأمون فرأيت في عينيه شراهة فأيقنت أنه ذهب حقيقي. سارع مأمون يجلب غطاء من أمتعتنا المكدَّسة قرب النار. شممت رائحة الشاي المحترق، ولكننا لم نعره إهتماماً. بسط مأمون الغطاء على الرمل أمامي لكي أدلق الذهب فوقه. شآبيب المطر توقفت والجملان كفّا عن الإجترار.. أذكر تلك اللحظة تماماً. كان الصمت هو الذي يخرق أذني.. و.. وأنفاس مأمون الفضولية المتلاحقة.

حقاً: مَنْ منا بوسعه أن يقاوم الرغبة في إمتلاك الذهب؟

دلقت الذهب فوق الغطاء. ظلَّ يتلألأ.. ويتلألأ صانعاً تلة صغيرة، ولكن القلة الفخارية المتشققة تحللت بين يديّ فجأة بمجرد أن غادرها الذهب وتساقطت في قطع صغيرة، صغيرة، صنعت كومة من الرماد بجوار الذهب الناعم الساحر، المتلألىء، الذي يعمي البصر تحت ضوء النار.

حدجني مأمون بنظرة ذات معنى، ولكني هربت ببصري ملتفتاً نحو الذهب.

لملم مأمون الغطاء حول الذهب، أَحْكَمَ حوله الرباط بعناية، ثم دسَّه في مخلاة. تنفسنا الصعداء، ولكن الشاي كان قد احترق.. والخبز أيضاً!

(٢)

إستيقظنا في الصباح قبل طلوع الشمس، بدأ مأمون يعجن الدقيق إنتقاماً لليلة البارحة التي قضيناها بلا شاي، وبلا عشاء!

قمت أجلب الحطب، عدت بعد دقائق فوجدت وجه مأمون متجهماً، عابساً، يحدجني بنظرته التي أعرفها، أفهمها عندما يخفي شيئاً ما، يريد أن يعلن شيئاً ما. إستمرٌ يعجن الدقيق بتأفف واضح. قبل أن أسأله رأيت المخلاة ملقاة بجواره، هجمت عليها كالمجنون وقلبي يخفق بشدة، فتحتها فرأيت ذهب البارحة كتلة من الرماد!

(٣)

سأل الشيخ غوما:

- بعد فتح القلة مباشرة، هل كان يبدو كالرماد؟

سارعت أجيب بحماس:

- لا. كان ذهباً حقيقياً، يتلألأ.. يتراقص أمام العين..

قاطعني بلا مبالاة أخجلتني:

- إذنْ هو ذهب بالتأكيد.

ساد صمت يخرقه صياح الجنادب في الواحة. نسيت خجلي فسألته بالحاح:

- ولكن هل تعتقد أن الجدي الأسود ضروري حقاً؟

سعل وقال بصوت واهنٍ بدا لي غريباً في تلك اللحظة:

- يقولون ذلك. ولكنّ هذا النوع من الذهب يُعثرَ عليه في الصحراء الكبرى دائماً في مناطق لا يمكن الحصول فيها لا على جدي أسود، ولا على جدي أبيض!.

ساد صمت تخرقه كركة الشاي الأخضر. بعد لحظات أعلن الشيخ غوما:

- إذا كان الذهب حقيقياً عند فتح القلة وتحوَّل فيما بعد إلى رماد فإن أحدكما آثم..!

فاجأني ذلك، خجلت من نفسي، دسست رأسي في حجري، أنا القادم من أوروبا وأمريكا. ولكن سمعت مأمون يقول بتحدٍ:

ـ مَنْ منا ليس آثماً يا شيخ غوما.. مَنْ؟!

ساد صمت طويـل، طويـل هذه المـرة أكثر من أي وقت مضى حتى سمعت صوت الشيخ غوما يعترف:

ـ معك حق.

الطريق إلى الأوراس[1]

مهداة إلى «أ. ب»

(١)

وصل مشارف جبل غريان، في نهاية الحمادة الحمراء شمالاً، فوجدهم في انتظاره: قافلة من الجمال، وثلاث سيارات شحن، وثلاثة رجالٍ بدأوا في تعبئة الأسلحة في خرج بمجرد أن أبصروه في حين أقبل أحد الرجال الثلاثة لاستقباله. قفز من المهري ومشى حافياً على العراء المغطى بأحجار حادة فجرى المهري خلفه. صافحه الرجل بحرارة وقال بإنفعال:

- بوحجر. إسمي بوحجر من مكتب طرابلس، لقد جهَّزنا كل شيء، وما عليك إلَّا أن تتوكلَ على الله قبل أن ينتصف النهار، سوف يرافقك رفيقنا بوسعيد.

عندما انتهوا من شحن الأكياس الصوفية بالأسلحة حمَّلوها فوق ظهور الجمال. قدَّم له بوحجر لجام القافلة وقال بنفس لهجة الحماس:

- على بركة الله. لديك المؤن من الدقيق والماء حتى المعلبات فوق ظهر الجمل الأخير. خذْ بالك من بوسعيد حتى تسلِّمه مع القافة للرفاق في الأوراس.

(١) سلسلة الجبال الجزائرية حيث انطلقت الثورة.

ركب بوسعيد فوق ظهر جمل فأمسك هو بلجام جمله فتحرَّكت خلفه القافلة. مشى على قدميه وبجواره مشى بوحجر يودِّعه ساعة كاملة. توقف بوحجر بعدها وشدَّ على كلتا يديه وهو ينظر في عينيه، ثم عانقه.. توقف يتابعه طويلاً بعد ذلك.

(٢)

بعد ثلاثة أيام بدأت الصحراء تأخذ شكلاً آخر. إنحسرت الصخور، وشرعت القافلة تسير عبر خلاء مغطًى بالحصى، ولكن تنتظرهم جبال الجعيفري الوعرة.

في اليوم الرابع لحق بهم فارس يمتطي المهري، ويعدو بإتجاه القافلة. توقف أمود وشَرَعَ يراقبه لدقائق، ثم التفت نحو بوسعيد وقال مطمئناً:

ـ لقد عرفته، إنه قريبي، ابن خالتي خليفة.

وصل الرجل. ترجَّل عن الجمل، ومدَّ يده لبوسعيد أولاً، ثم إلى أمود. رافقهما حتى انتصف النهار دون أن يبوح بشيء، ولكن أثناء الغداء قال بهدوء:

ـ لقد علم الفرنسيس بكل شيء.

ـ كيف؟

قالها أمود مستغرباً وهو يرفع رأسه عن عجين الخبز. عاد خليفة يقول:

ـ لقد اعتقلوا الكازوكي، قيَّدوه، ثم ضربوه وهددوه بالقتل إذا لم يصرِّح عن مكان وجودك. كانوا يحملون صورتك أيضاً.

ـ وهل قال الكازوكي شيئاً؟

ـ لا. لقد يئسوا منه وأطلقوا سراحه فذهب من فوره إلى نقطة البوليس الليبية[1]. علمت ذلك من رجال النقطة وقد كلَّفوني بأن أتصل بك وأخبرك،

---

(١) ظلَّ جنوب ليبيا محتلاً من قبل فرنسا حتى عام ١٩٥٦، وكان ثمة نقط بوليس ليبية في هذه المناطق.

أمَّا القرار فهو قرارك. لقد كنت أبحث عنك منذ أيام واهتديت إلى آثار القافلة منذ يومين.

عاد أمود يعجن الدقيق، في حين تكلم بوسعيد منزعجاً:

ـ هذا يعني أنه يجب أن نعود على أعقابنا.

لم يعلِّق أحد. ساد صمت إستمر حتى الغداء.

عقب تناول الشاي هبت نسمة باردة. هبَّ أمود وشَرَع يحمِّل الجمال أثقالها. قال بتحدٍ:

ـ لن نعود.

قال بوسعيد منزعجاً:

ـ أرجو ألَّا يكون هذا إنتحاراً.

ولكن أمود لم يعلِّق. سارع خليفة يحذِّر بدوره:

ـ إنهم يجوبون الصحراء الممتدة من غدامس حتى غات بالسيارات، وأحياناً بالطائرات، هكذا أخبرني الملازم مبروك.

تساءل أمود ملتفتاً:

ـ الطائرات؟. هذا أسوأ، ولكن لن نعود.

لاحظ الإنفعال الذي طفا على وجه بوسعيد فقال بثقة:

ـ كل ما هنالك أنه يجب تغيير خط السير. ولكن كيف علم الفرنسيس بالأمر بحق الله؟

أجاب خليفة وهو ينهض ويساعده في وضع الأمتعة فوق ظهور الجمال:

ـ لا شيء يخفى هذه الأيام، حتى في الصحراء.

رافقهما حتى المساء، وعندما قرر أن يعود شدَّ أمود على يده وقال:

ـ رد بالك من العيال، وسلامي إلى الكازوكي.

(٣)

إنطلقت القافلة عبر طريق يمرُّ بين جبلين هائلين. إستقرَّت الشمس في

قلب السماء وشرعت سياط الحر تنهال. قال أمود وهو يمسح العرق المتدفق على جبينه بطرف عمامته:

- تغيير خط السير يستدعي أن نقطع الجبال بدل الطريق التي تحاذيها وتؤدّي إلى «الخنفوس». لا بدّ أن نصل الصحراء الرملية التي لن يستطيع الفرنسيس اجتياحها بسياراتهم. وهذا يضاعف من الرحلة.

عاد بوسعيد يفصح عن تردده:

- ما زلت عند رأيي في أن نعود.

لم يعلِّق أمود، إكتفى بأن ترجَّل عن جمله، وطلب من رفيقه أن يقود القافلة على قدميه أمامه، قال:

- يجب أن أعتني بالقافلة من الخلف حتى نجتاز السفح وندرك العراء. الجمال مثقلة بحمولات السلاح.

قبل أن يبلغا القمة بقليل انهار أحد جمال القافلة بثقله فسارع أمود يساعده ويعدل من وضع الحِمْلِ فوق ظهره، ولكن انزلقت في تلك اللحظة رجل الجمل الأخير، فعاد يجري نحوه وأمسك باللجام الذي انفلت من ذيل الجمل الذي يسبقه، ولكن شدّ اللجام لم ينقذ الجمل من الإنهيار في أعماق الهوَّة السحيقة، فَشَرَع أمود يتدحرج عبر السفح المغطًى بصخور حادة هائلة. سقط وتدحرج خلف الجمل حتى تشبَّث بنتوء في سفح الجبل، زحف على بطنه حتى وصل إلى الطريق، وقف على قدميه وشَرَع يراقب الجمل الذي هوى بالأمتعة في الأعماق وهو يرغي والزبد يغطي فمه فيرتدّ صدى صوته مضاعفاً مفجعاً، أليماً. أقبل بوسعيد وقال وهو يرتعد:

- ماذا حدث؟ يا ربي! إن الدم يغطي وجهك ويديك.

قال ساهماً وهو يتابع ببصره الجمل الصريع بين الصخور والأمتعة المتناثرة على السفح:

- هذا لا شيء، كدمات بسيطة، ولكن الحسرة على الجمل وعلى الماء الذي ضاع، الحمد لله أننا لم نضع كل القُرَب والمؤونة على جمل واحد.

حاذرِ الآن، يجب قيادة القافلة بمنتهى البطء.

وقف أمود طويلاً يرقب القُرَب الممزقة والماء الذي اندلق على سفح الجبل فتمتصه الصحراء العطشى بشراهة. ثم تابعا سيرهما بالقافلة حتى أدركا العراء. بعدها قال أمود:

ـ سوف نضاعف من سيرنا حتى نبلغ بئر «العطشان» لكي نعوِّض الماء الضائع. يجب أن نستغل الليل عند غياب الشمس والحر، إننا مهددون بالعطش إذا لم نفعل ذلك.

(٤)

تابعت القافلة رحلتها في خلاء مغطّى بالحصى والأحجار الصغيرة. سأل بوسعيد القاعد فوق ظهر الجمل وهو مبهور بالعراء المتنوع:

ـ كَمْ صحراء في الصحراء الكبرى يا عمي أمود؟

قال أمود وهو يقود القافلة مشياً على قدميه:

ـ في الصحراء الكبرى صحار كثيرة: طينية ورملية صخرية، وجبلية، منخفضة ومرتفعة، سهول وأودية. حصى وأحجار كبيرة ومتوسطة.. ولا يحدث أن تتداخل أبداً. تجدها معزولة، كل صحراء مستقلة لوحدها، مفصولة عن الأخرى كأنها قطعت بسكين. أنت لا تعرف كم قلبها كبير هذه الصحراء. إنها تمنحك دائماً أكثر مما تعدك، وإذا خنتها فباستطاعتها أن تطاردك حيث كنت، لتقتصَّ منك!

صمت بوسعيد ثم أخرج من أمتعته كتاباً وشَرَع يقرأ حتى قفزت أرنب برية جفلت لها القافلة كلها. توقّف أمود وتناول بندقيته القديمة المعلّقة في سرج المهري دون أن يصوِّب نحو الأرنب الهاربة التي اختفت وهي تنطلق بين الأعشاب البرية بسرعة الريح حتى غابت عن البصر.

وفجأة رأى بوسعيد كيف ربط أمود لجام جمله في شجرة برية على الطريق وسط وادٍ صغير ثم تسلل عبر الأعشاب البرية التي بدأت تشحب

وتغادرها الحياة. تابعه بوسعيد بنظره حتى غاب عن البصر في الغابة الصحراوية الصغيرة.

مرَّ وقت طويل قبل أن يسمع بوسعيد طلقة نارية تحتدم في قلب الخلاء، ثم ساد الصمت مرة أخرى. بعد لحظات أقبل أمود وفي يده غزالة ذهبية ساحرة مذبوحة يقطر الدم من رقبتها ومن بطنها. واضح أنه أصابها في البطن!

واصلت القافلة سيرها حتى مالت الشمس إلى الغروب. توقف أمود وترجَّل عن الجمل. شَرَع يزيح الأمتعة من فوق الجمال التي بدت متعبة، في حين استلقى بوسعيد تحت شجرة برية يابسة والكتاب في يده. ألقى بالكتاب فغاص في الرمل. تابع السماء الصافية الزرقاء بعد أن بدأ حر الظهيرة يهدأ ويتراجع.

قال أمود وهو يكوِّم الحطب ويشعل النار:

- سنواصل في المساء، ما زالت أمامنا رحلة طويلة حتى نبلغ بئر «العطشان».

إنهمك في سلخ الغزالة عندما سمع بوسعيد يقول:

- هل تعلم يا عم أمود أنني كدت أشهر في وجهك السلاح منذ يومين عندما أخبرنا قريبك بأمر الفرنسيس؟

توقف أمود عن سلخ الغزالة لحظات دون أن تفضح ملامحه أي تعبير حتى أنه لم يرفع رأسه عن الغزالة. مرَّت لحظات قبل أن يستمر يجرِّد الغزالة عن الجلد بعناية بلا تعليق في حين عاد بوسعيد يقول:

- ولكني تراجعت في آخر لحظة، لقد أدركت فجأة أنني سوف لن أستطيع إجبارك على العودة برغم أنني المفوَّض الوحيد بالأمر في هذه الصحراء.

حَدَجَهُ أمود بنظرة صارمة ثم استمر يقطع الغزالة ويلقي باللحم فوق الجمر. ولكن بوسعيد استمر:

- إنني مفوَّض من مكتب طرابلس، ولديّ رسالة في هذا الخصوص إذا لحقك شك!

ساد صمت قبل أن يتكلم أمود بهدوء:

- أنا لا أقرأ ولا أكتب ولا أفهم لغة الرسائل. ولكن بوحجر قال لي أنك أمانة في عنقي أنت والسلاح والقافلة حتى أسلمكم إلى الرفاق في الأوراس. ولن يمنعني أحد من أن أفعل ذلك.

إحتقن وجه بوسعيد بالدم والإنفعال. قال بجدية:

- ولكني لست جزءاً من الأمتعة أو القافلة. لديّ رأي يجب أن أقوله وأنفِّذه وهو أنه طالما حدثت خيانات فيجب التراجع ودراسة الأمر. أنت لا تفهم ماذا يعني ما قاله قريبك. إنني مهدد. أنت لا تستطيع أن تعي ذلك.

- قريبي قال العكس، قال إن الفرنسيس يبحثون عني أنا، ولقد استنطقوا الكازوكي بذلك، أتعرف أن هذا الكازوكي عاجز محطم مشلول، يمشي على عكازين؟

شَرَعَ يعتني باللحم فوق النار. بدأت رائحة لحم الغزال المشوي تفوح عبر الخلاء. قفز بوسعيد واقترب من أمود وتساءل بخجل:

- هل قلت إن الكازوكي مشلول يمشي على عكازين؟ وهل يستطيع الفرنسيس أن يعذبوا إنساناً كهذا؟

ألقى أمود بقطعة أخرى من اللحم فوق فحم النار، دسَّ يديه في الرمل الناعم ينظفها من الدم واللحم وقال دون أن يلتفت إلى بوسعيد:

- سبحان الله. تبدو كأنك قادم من القمر. الفرنسيس يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك. ما زلت شاباً وستعلمك الأوراس الكثير. لقد قتل الطليان زوجتي الأولى في الـ ٣١ عند إجتياحهم لـ «غات».

بحثوا عني فلم يجدوني. إستنطقوها، ضربوها، إغتصبوها، جرجروها بسياراتهم عبر غات حتى ماتت. لقد لجأتُ وقتها إلى جبال «أكاكوس» مع رفاقي، وعندما بلغني أنها ماتت هاجرتُ إلى «كانو» مع ثلاثة من الرفاق، أمَّا

البقية فقد تناثرت بين تشاد والنيجر والسودان.

شَرَعَ يقلِّب اللحم فوق الجمر، نهض وأتى بابريق الشاي. أضاف وهو يصبُّ فيه الماء ويدسّه فوق الجمر بجوار اللحم المشوي:

ـ ستعلِّمك الأوراس. لقد تعذَّبنا كثيراً في «كانو» وتعذَّب الرفاق في تشاد والنيجر والسودان. عدت منذ تسع سنوات. تزوَّجت مرة أخرى وأنجبت طفلين، ولكن ثورتكم شغلتنا. أنت لا تستطيع أن تتصور أن الإنسان الذي تعوَّد على الحرب لا يستطيع أن يعيش دون حرب!

تناول قطعة لحم من فوق الفحم ومدَّها إلى بوسعيد. تناول قطعة أخرى قضمها وشَرَعَ يمضغها بهدوء. ساد سكون طويل تخرقه الجمال وهي تهرس الأعشاب اليابسة بفكاكها.

عاد أمود يقلِّب قطع لحم الغزال فوق الجمر وقال دون أن يرفع رأسه كأنه يخاطب نفسه:

ـ لقد اشتعلت حروب القبائل بعد عودتي، ولكني لم أشترك فيها. وعندما جاء رجالكم منحناهم كل شيء، جلود عيد الأضحى والتمرو. . وحتى النساء ألقت بما تملك من الفضة والزينة في أوانيهم الفخارية التي جاءوا بها لجمع المال والمعونة. لقد فعلت زوجتي الثانية ذلك أيضاً. ولكن هل هذا يكفي؟

هَمَدَ الجمر فَشَرع أمود ينفخ في النار حتى تلألأت. رفع رأسه وأضاف وهو يقاوم الدوار:

ـ لقد تطوعت للحرب ولكن رجالكم لم يقبلوني بسبب ضعف البصر. لا أنكر أن بصري بدأ يضعف في السنوات الأخيرة منذ عدت من «كانو» وأعرف أن هذا الأمر سبب وجيه لرفض الشيوخ للمشاركة في الحرب غير أني ما زلت أستطيع أن أصيب غزالة طائرة في الفضاء وأنا أمتطي المهري. أوه، لم أعد أستطيع أن أصيبها في الموضع الذي أريده ولكني أصيبها على كل حال!

آه أنت تعرف، الرجل الذي تعوَّد على الحرب لا يستطيع أن يصوم عنها حتى لو كان عاجزاً أو أعمى! ليس هناك أسوأ من أن ترى النساء تلقي بزينتها في أواني التبرع للمحاربين ونحن الرجال نتفرج!

ليس لدينا ما نمنحه سوى بنادقنا، ولكن لا تطلبوا منا أن نفارق بنادقنا. أنت لا تعرف هذا الشقاء. خذونا ببنادقنا إذا شئتم، ولكن لا نستطيع أن نمنحكم أسلحتنا التي قاتلنا بها ثلاثين عاماً.

تناول قطعة أخرى من اللحم ومدّها لبوسيعد، ثم بدأ يخلط الشاي الأخضر.

بعد صمت طويل قال:

ـ لذلك سعدت كثيراً عندما أوكلوا إليّ مهمة قيادة القافلة إلى الأوراس. يجب أن تعرف الآن لماذا لا أستطيع أن أعود.

(٥)

قبل أن يبلغا بئر «العطشان» ترجَّل أمود عن المهري، تناول منظاره المكبِّر واعتلى ربوة رملية وشَرَع يراقب الخلاء بمنظاره. عاد بعد قليل وأشار لبو سعيد أن يترجَّل، قال دون أن يفضح صوته أي توتر:

ـ عليك أن تساعدني، يُخيَّل لي أنني أرى أشباحاً تحوم حول بئر «العطشان».

قفز بوسعيد فوق الرمل الناعم، رافقه حتى التلة الرملية، تناول المنظار وشرع يراقب العراء. قال بعد قليل:

ـ معك حق. مجموعة من الرجال وثلاث سيارات.

قال أمود دون أن يخفي قلقه هذه المرة:

ـ إذنْ لقد سبقونا إلى بئر «العطشان».

عاد إلى القافلة في حين سأل بوسعيد:

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ لا شيء.. سنواصل إلى بئر «العوينات»، سنقطع المسافة في خمسة أيام إذا سرنا ليلاً نهاراً بلا توقف.

ـ ولكن لدينا نصف قربة من الماء فقط؟

ـ أعرف، ولكن هذا أفضل من أن نموت بالعطش بجوار بئر «العطشان» في أحسن الفروض. هذا إذا لم نمت برصاصهم!

قال بوسعيد دون أن يخفي توتره وقد أزعجته فكرة الخمسة أيام بنصف قربة ماء:

ـ ربما انتظرنا بعض الوقت، يوم أو.. نصف يوم، ربما انصرفوا.

قال أمود بثقة:

ـ لن ينصرفوا قبل أن ييأسوا. لم يمضِ عليهم وقت طويل وهم يرابطون على البئر هذا واضح. ولن ينصرفوا قبل بضعة أيام لأنهم يعرفون أن بئر «العطشان» هو الملجأ الوحيد في طريقنا إذا قررنا أن نسلك الصحراء الرملية.

صمت لحظات ثم أضاف:

ـ لذا أرى أن نبحث عن الحل الآخر. ذلك أفضل من أن نضيع الوقت في انتظار إنصرافهم. بئر «العوينات» يقع في قلب الصحراء الرملية ولن يطالوه لا بالسيارات ولا بالطائرات.

صمت لحظة قبل أن يضيف كأنه يخاطب نفسه:

ـ الصحراء أقوى منهم، ونحن أقوى من الصحراء.

لم ينتصف النهار ولكن الشمس بدأت تلتهب. مضت القافلة تتوغّل عبر الرمال، تظهر وتختفي بين الكثبان الرملية الرامضة.

(٦)

نَفَد الماء في اليوم الثاني برغم إحتياطات أمود في الإقتصاد من الشرب.

وفي ظهر اليوم الثالث لم يعد بوسعيد يقوى على الثبات فوق الجمل. شحب وجهه، تشققت شفتاه، وانهارت قواه ولم يعد يرى شيئاً فسقط من فوق الجمل. أقبل أمود وأناخ أحد جمال الأمتعة، ألقى به فوق الجمل وشَرَع يحكم حوله الوثاق على ظهر الجمل، ثم تناول اللجام وقاد القافلة ماشياً على قدميه.

مالتِ الشمس إلى الغروب ولكن صهد القبلي استمر يكوي الرمال ويحرق الأجساد.

في المساء قال أمود:

- إصبر قليلاً، سنبلغ البئر بعد يوم ونصف فقط. اصبر.

ولكن بوسعيد خار نهائياً في اليوم التالي. قال يتوسَّل بصوت ضعيف:

- لم أعد أستطيع. يجب أن تتركني، لا أستطيع.. إنني لا أرى شيئاً.. دعني في حالي بالله...

أوقف أمود القافلة، أعانه على الوصول إلى شجرة صغيرة في الوادي، ألقى به تحت ظلها ووقف يراقب عينيه الزائغتين اللتين تبحلقان في الفراغ. إنحنى فوقه وسأل:

- هل تراني؟ هل تستطيع أن تراني!

ولكن بوسعيد لم يجب، ظلّ يئن بصوت مكتوم. لقد كان عاجزاً عن الكلام.

تأمله أمود لحظات ثم عاد إلى القافلة وهو يترنَّح في مشيه. أناخ أحد الجمال وجرّده من الأمتعة. أوثق رجليه الأماميتين بعناية، ثم سارع يربط اللجام في ذيل الجمل حتى يعجز عن الحركة. أتى بسكين وشَرَع يذبح والإناء في يده. بدأ الجمل يرغي بضراوة محاولاً أن يحرر رقبته. بدأ الدم ينزف بغزارة فيسرع أمود يتلقفه بالإناء بيده الأخرى.

جاء بصحن الدم إلى بوسعيد. صبَّ له قطرات في فمه اليابس من اللعاب.. شرب بوسعيد من الدم ولكنه رفض أن يشرب أكثر بمجرد أن عاد

إلى الوعي، دفع الإناء بحركة يائسة من يده يبدو أنها كلفته جهداً خـارقاً. تناول أمود جرعتين من الإناء وعاد نحو الجمل المتخبط في الدم وهو ما يزال يترنحُ في خطوه. فكَّ رباط رأس الجمل الموثوق إلى الذيل فانهارت رقبته الطويلة على الرمال. شرع يدفع جسمه الضخم حتى سقط على جنبه، جلس لحظات يلهث ويلتقط أنفاسه المتلاحقة. ثم نهض وتناول السكين وشـرع يمزِّق بطنه.

جاء بأحشاء الجمل المليئة بالماء. بقر قطعة من الأحشاء بالسكين وحشا رأس بوسعيد في وسطها. بقر قطعة أخرى من الأحشاء، شرب منها ثم عاد يُعنَى ببوسعيد.

جلس بجواره.. بعد زمنٍ رآه يرفع رأسه فسأله بلهفة:

ـ هل تراني الآن؟ هل تراني؟

مرَّت لحظة صمت قبل أن يهزَّ بوسعيد رأسه علامة الموافقة.

(٧)

أدركا بئر «العوينات» في مساء اليوم التالي. هـرول أمود إلى الدلو وألقى به في القاع وشدَّ طرف الحبل. وصل بوسعيد يزحف على يديـه وركبتيه، سمع ضجيج الدلو في الماء. ماء... ماء حقيقي هذه المرة، ليس دماً وليس سائل أحشاء الجمل.

جاء أمود بالدلو ودَلَقَ الماء فوق بوسعيد، ثم فوق رأسه، وعاد إلى البئر من جديد.

(٨)

عندما بلغا أعتاب أول جبـل «الأوراس» شاهـدا سيارة بانتظارهما في المكان المحدد. وعندما وصلا خرج منها ثلاثة رجال تقدَّم أحدهـم لإستقبال القافلة. ترجَّل عن المهري وصافح الرجل الذي عانقه بحرارة صديق قديم. قال الرجل بسعادة:

ـ الحمد لله على السلامة. لقد يئسنا من كل شيء بمجرد أن عرفنا أن الفرنسيس علموا بالأمر، ولكنك حققت أعجوبة!

تناولوا طعام الغداء تحت الجبل، وبعد أن شرعت الشمس تميل نحو الغروب نهض أمود وأعلن:

ـ يجب أن أبلغ «جانت» قبل صباح الغد.

مدَّ له الرجل الذي استقبله بلجام القافلة التي جُرِّدَتْ من أثقالها وقال بابتهاج:

ـ لن ننسى معروفك. خذْ قافلة الجمال معك، ليس لدينا ما نفعله بها، لقد أدَّت مهمتها وعليك أن تحتفظ بها كهدية للذكرى.

تناول اللجام وربطه في ذيل جمله ومضى بعد أن ودَّعوه بالعناق الواحد تلو الآخر.

بعد قليل انطلقت السيارة متجهة إلى السلسلة الجبلية. التفت بوسعيد فرأى القافلة تراقص السراب بعد أن تلقفها الأفق في الخلاء الأبدي.

(٩)

في صيف ١٩٦٦ كان أمود يستلقي في القيلولة عندما أقبل أحد أولاده وأخبره أن ثمة رجلاً في الخارج يسأل عنه.

خرج أمود فإذا به يقف مع بوسعيد وجهاً لوجه. تعانقا طويلاً. ثم أَسْرَع ينحر خروفاً للضيف. عاد وطلب عدة الشاي. قال بحماس وهو يضع الإناء فوق الجمر:

ـ هيا خبِّرني: ماذا فعل الله بك طوال هذه السنين؟ أين تقيم الآن؟

ـ لا أقيم في أي مكان، أعيش متنقلاً بين تونس وطرابلس وباريس.

صمت لحظات ثم قال بمرارة:

ـ لقد اختلفت مع الجبهة بعد الاستقلال مباشرة...

ـ مفهوم.. مفهوم، ولكن كيف حال بوحجر؟
قال بوسعيد بنفس المرارة:
ـ لقد اختلف معهم أيضاً بعد الإستقلال بسنة ولجأ إلى باريس.. إنه يقيم هناك منذ سنوات.

قال أمود وهو يخلط الشاي:
ـ مفهوم، مفهوم، هذا هو الحال دائماً. هذه هي الحياة...
ثم قدَّم له كوب الشاي بيد مرتعشة!

فهرس المحتويات

من مجموعة الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة ١٩٧٤م ٥

الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة ٧

(٢)

من مجموعة «جرعة من دم» ١٩٨٣م ٣١

١ ـ ذرّات الرّمل التي تقرع الطبول ٣٣

٢ ـ إلى أين أيها البدويّ، إلى أين؟ ٥٢

٣ ـ جرعة من دم ٥٩

٤ ـ الشظية ٦٨

٥ ـ الزّغب ٧٨

(٣)

من مجموعة «شجرة الرّتم» ١٩٨٦م ٨٣

١ ـ واحة كبيرة تضجّ بالغناء ٨٥

٢ ـ الغزلان ٩٥

٣ ـ الأب والإبن ١١٣

٤ ـ شجرة الرّتم ١٢٢

٥ ـ الحمّى ١٣٢

٦ ـ الشهيد يريد أن يتكلّم ١٤٧
٧ ـ الجدي الأسود ١٥٥
٨ ـ الطريق إلى الأوراس ١٦١

يقودنا هذا الكتاب إلى الصياغات الأدبية الأولى التي قام بها إبراهيم الكوني ليكشف عن غوامض كتاب الصحراء الذي ظلّ منتظراً طويلاً مَنْ ينذب نفسه ليقرأ ألغازه ويفكّ طلاسمه ويفضّ أسراره. كما لو أن آلاف السنين من عمر الإنسان في الصحراء وصراعه مع طبيعتها القاسية وترحاله في أرجائها لم تكن كافية للكشف عن عالم الصحراء إلى أن جاء الكوني وكرّس أدبه ليدلنا على رموزها الخفية الباطنة خلف قناع عُريها المكشوف والظاهر.

وإذا كانت الصحراء هي موطن القادة الروحيين العظام في تاريخ البشرية، وميدان خبراتهم الوجودية وحقل تأملاتهم الروحية، فذلك لأن معاناتها والعيش فيها يتيحان «الخروج» على الحياة المألوفة والمعتقدات السائدة لعالم المدينة حيث التقاليد الراسخة والأنظمة الصارمة تقلل من فرص الخروج والتمرد وتضعف من تطلّب الحرية.

الصحراء، وطن الرؤى السماوية ووطن الأنبياء تحضن عشاق الله والحرية وتحمل رسالاتهم بعيداً لغزو أرجاء المعمورة.

تاسيلي للنشر والإعلام

دار التنوير للطباعة والنشر